بسم الله الرحمن الرحيم





جامعة السودان للعلوم والتكنلوجيا

كلية الدراسات العليا

كلية التربية (قسم اللغة العربية)

صور الليل ودلالته في الشعر الجاهلي

The Night Images And their Significance in the Pre-lslamic Poetry

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التربية لغة عربية (الأدب)

إشراف الدكتور :

الفاضل أحمد الخضر البله

إعداد الطالب:

الوالي أحمد محمد

2019

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستهلال

قال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) صدق الله العظيم

الإهداء

أُهدي هذا العمل الذي يمثل كنز من كنوز المعرفة الأدبية الغرَّاء.

إلى الذين قدما لي الحياة ورونقها (أمي و أبي).

إلى من وقفت بجانبي من غير كلل، الغالية زوجتي.

إلى ثمرة قلبي ونور عيني ابني العزيز (أحمد).

لصبرهم و كفاحهم معي حتى خرج هذا العمل إلى بر الأمان.

الباحث

الوالي أحمد محمد الوالي

الشكر والتقدير

عاجز عن الشكر، أقف أمام فضائل أستاذي الموقر الدكتور الفاضل أحمد البله، إذ لا تُسعِفُني الكلمات، والعبارات، أن أجد ما أعبِّر به عن عظيم امتناني، وتقديري، لما أحاطني به من رعاية علمية وإرشاد وتوجيه مما كان له كبير الأثر في إخراج هذا العمل إلى حيز الوجود.

كما اتقدَّم بجزيل الشكر والعرفان للأستاذين عضوي لجنة المناقشة الموقرين:

دكتور/ أيمن سلطان

دكتور / أحمد ابراهيم

لتفضلهما بقراءة رسالتي وتقديم الملاحظات القيمة، التي تؤدي إلى إثراء هذا العمل الأدبي، سائلاً المولى عز وجل أن يحفظ أساتذتي الكرام، وأن يغمرهم برعايته، وأن يبقيهم ذخراً وسنداً لكل طالب علم.

الباحث

الوالي أحمد محمد الوالي

المستخلص:

تناولت هذه الدراسة ظاهرة الليل بطبيعته الزمانية، (صور الليلودلالاته في الشعر الجاهلي) وترجع أهمية هذه الدراسة لمعرفة الليل لغة واصطلاحاً، وتسليط الضوء على جملة من الأهداف التي تكشف دلالات الليل في تجربة شعراء الجاهلية، وإبراز ملامح الليل بصفته ظاهرة طبيعية لها حضورها في أشعار الجاهليين، وتوصلت هذه الدراسة الوصفية إلى نتائج منها: أن الليل كان باعثاً للآلام والهموم والأحزان والقلق، وكذلك ساحة لإبراز صور الشجاعة والإقدام، وأيضاً مبعثاً للسعادة وصفاء القلب من خلال تلاقي العاشقين.

Abstract

This study deals with the phenomenon of the night by its quiet nature (theimages of the night and significances in the pre-Islamic poetry).

The importance of this group is due to the knowledge of the meaning of the night in the language and its terminology, and to highlights a number of indication that reveal new aspects of the experience of the pre-Islamic poets and the appearance of the night as a natural phenomenon . The result of this descriptive study include : that the night was a cause for pain ,anxieties , grief and worry, as well as a scene to show pictures of courage and fearlessness, and also a cause of happiness and purity of heart through the convergence of lovers .

فهرس الموضوعات

المقدمة:

الحمد لله مالكالسماوات والأرض، ومبدع الليل والنهار، والصلاة والسلام على هادي الأمة ونور الظلمة نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين .

تبقى صور الليل من اللوحات الفنية التي تستحق البحث والاهتمام والتأمل والدرس لما فيها من إيحاءات وقيم إنسانية، تضيء جوانب من النفس البشرية وتتجلى فيها عوالم هذه النفس ومجاهيلها المتسقة مع سواد الليل وظلمته فهو الذي يكتسب أهمية كبيرة في شعرنا القديم بملامحه ودلالاته التي تعددت وتلونت باختلاف نظرات الشعراء إليه . تلك النظرات صورت العلاقة المتينة بين الشعراء والبيئة المحيطة بهم فتجلت بصور مختلفة متباينة تارة ومتشابهة تارة أُخرى من حيث كونها تشكل مصدراً لهموم الشعراء وباعثاً لعواطفهم وخيالاتهم .

وعلى الرغم من أهمية موضوع الليل إلا أَنه لم يدرس بصفته ظاهرة محورية،ومستقلة في أَشعار الجاهليين، وهذه المفارقة الواضحة تؤكد على أَهمية الموضوع من ناحية، وتبرير قلة الإهتمام به من ناحية أخرى إذ لم يحظ بعناية متفردة وبحث جاد إلا من قبل بعض الباحثين الذين اختصروا على دراسة الليل في الشعر العربي، وقد كان تركيزهم منصباً على بعض الموضوعات مثل الغزل ، والحكم ، والكرم وغيره . بل كان تناولهم له على شكل ومضات من خلال إلقاء الضوء على بعض النماذج الشعرية في بعض العصور وفي أَغلب الاحيان كانت كتاباتهم مقالات وبحوثاً مختصرةً أَصبحت بذرةً للعديد من الدراسات اللاحقة.

ومن هنا كان اهتمام الباحث بصور ودلالات الليل والنظر إليه من رؤية الشعراء الخاصة كونه يوفر لهم المجال الذي يناسب خيالاتهم ويوافق تطلعاتهم إلى السفر للتحرر من قيود البيئة التي تحد من حريتهم وتشكل مصدر الألم لهم كما يهدف اهتمام الباحث بالليل إلى الكشف عن أي تغير محتمل في صوره ودلالاته بين شعراء الجاهلية. وتأتي أهمية هذه الدراسة في تسليط الأضواء على جملة من الدلالات التي تكشف جوانب جديدة في تجربة شعراء

الجاهلية التي تجعل الليل مجالاً فسيحاً للغوص في أبعاد ملامحه ودلالات صوره للتعبير عما يجول في خواطر الشعراء ومايخبئوه في نفوسهم .

وبعد أن فكَّر الباحثفي هذه التجربة الشعرية وحاول تقصي ملامح الليل فيها وجدا أنه من المفيد السعي للاستفادة من المناهج المختلفة التي من شأنها أن تسهم في الوصول إلى نتائج دقيقة من خلال الدراسة النصية وما يمكن أن يوفره تحليل النصوص من ومضات فكرية وعاطفية .

مشكلة البحث:

تحاول الدراسة الإجابة عن السؤال الرئيس التالي:

ما الليل وما صوره ودلالاته في الشعر الجاهلي ؟

ويتفرع من هذا التساؤل الرئيس أسئلة عدة:

1- ما مفهوم الليل عند الشعراء الجاهليين؟

2- ما صور الليل التي تناولها الشعراء الجاهليون ؟

3- ما دلالات الليل وإيحاءاته في الشعر الجاهلي؟

أهداف البحث:

يسعى البحث إلى تحقيقالأهداف التالية:

1- التعرّف على مفهوم الليل عند الشعراء الجاهليين.

2- توضيح صور الليل في الشعر الجاهلي.

3- بيان دلالات الليل وإيحاءاته في الشعر الجاهلي.

أهمية البحث:

تشير أهمية هذا البحث بأنه خطوة مضيئة في عتمة مجاهيل الشعر الجاهلي عن الليل وصوره، ولإبراز ملامح الليل بصفته ظاهرة طبيعية لها حضورها في أشعار الجاهليين وصورة في الوعي لها فاعليتها في التعبير عن رؤية الشعراء ومواقفهم الشعورية.

منهج البحث:

يتبع الباحث المنهج الوصفي لأنه الأنسب لهذا البحث.

حدود البحث:

يدور هذا البحث حول صور الليل ودلالاته في الشعر الجاهلي ولايتعدى هذا الحد إلى العصور الأخرى.

الدراسات السابقة :

الدراسة الأولى:

1- دراسة مازن أحمد عثمان، عنوانها: (الليل ودلالاته في شعر الجاهلية وصدر الإسلام)، رسالة دكتوراة مقدمة لجامعة تشرين،2013م.

من أهدافها:التعرف على مفهوم الليل والنظر اليه من رؤية الشعراء الخاصة كونه يوفر المجال الذي يناسب خيالاتهم، ويوافق تطلعاتهم إلى السعي للتحرر من قيود البيئة التي تحد من حريتهم وتشكل مصدر الألم لهم. كما يهدف البحث إلى الكشف عن أيِّ تغير محتمل في صوره ودلالاته بعد إشراق الإسلام على الجزيرة العربية، وماقدمه من فهمٍجديد للعالم.**ماتوصلت اليه الدراسة.**

1- غالباً ماكان طول الليل دليل أرق وهموم، وقصره دليل سعادة وسرور، وكثيراً ماكان الليل عند الشعراء مرتكزاً للوصول الى عالمهم النفسي. ولم يُستخدم الليل للتعبير عن المشاعر المؤلمة فقط، وإنما عبَّر فيه بعض الشعراء عن سعادتهم وإعجابهم بممدوحيهم وتعظيمهم لهم.

2- التوصل إلى أنَّ الشعراء هم الذين جعلوا الليل يتلوَّن بألوانهم النفسية ورؤيتهم ذواتهم على حقيقتها، فأصبح الليل عندهم في إطاره النفسي متعدد الألوان والسمات، لذا تعددت دلالات الليل وتباينت تبعاً لتباين أوجه علاقة الشاعر به.

منهج الدراسة:

المنهج الوصفي والتحليلي والتاريخي.

الدراسة الثانية:

3- دراسة زكية بنت عوض بن يوسف، عنوانها: الليل فى شعر الصعاليك، من الجاهلية إلى العصر الأموي رسالة ماجستير مقدمة لجامعة الملك فهد،2009 .

اهداف الدراسة:-

تهدف الدراسة إلى إبراز ملامح الليل و حضوره الفاعل فى أشعار الصعاليك منذ العصر الجاهلي، إلى نهاية العصر الأموى ، لعلها بذلك تسهم فى إلقاء الضوء على جانب مهم من جوانب تراثنا الشعري القديم , وأخص بذلك شعر الصعاليك.

النتائج التى توصلت اليها الدراسة: أن ليل الشاعر الصعلوك لم يكن فى دائم الأحوال ليلاً دموياً، بل كان فيه و قفات، وتأملات ذاتية ذاق فيها الصعلوك حلاوة الانزواء ، و الخلوة الوجدانية، فراح يفلسف تلك الوحدة بتأملاته الشعرية فيما حوله من المظاهر الطبيعية الصحراوية المختلفة التى طالما قلّبت عليه آهات الحنين للاستقرار، و أوجاع الشوق للأهل و الأحباب، فبات تلك الليالى مع عذاب الذكريات حينا، و مع آلام الاضطهاد الاجتماعي أحياناً أخرى.

منهج الدراسة: المنهج الاستقرارئي و التحليلي الذاتي

الدراسة الثالثة:

دراسة نوال مصطفى احمد.

عنوانها:الليل فى الشعر الجاهلى ، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة اليرموك 1997م.

اهدافها :

لقد هدفت هذة الدراسة الى الكشف عن بعض جوانب الليل، بصفته مظهرا من مظاهر الطبيعة التى استمد منها الشاعر الجاهلي عناصر قناعته، وجزءا من هذا المحيط بالشاعر ،الذى يتفاعل معه و تربطه به علاقة شعورية صميمة.

هيكل البحث:

قُسِّمت هذه الدراسة إلى ثلاثة فصول تسبقها مقدمة وتقفوها خاتمة مذيَّلة بفهارس ومصادر ومراجع، وهي على النحو التالي:

المقدمة

الفصل الأول: مفهوم الليل وعلاقه بالطبيعة

المبحث الأول: تعريف الليل وعلاقته بالكواكب والنجوم

تمهيــد:

شكلت الطبيعة للشاعر العربي منذ القدم _ ولإزالت _ مجالاً رحباً للتأمل والإلهام بكل ماتحتويه من عناصر ومكونات،سواء أكانت متحركة أم ساكنة، دائمة أم مؤقتة،خاصة عند شعراء الجزيرة العربية الذين ارتبطوا ببيئتهم، ووصفوها،على الرغم من تضاريسها الوعرة، وأجوائها القاسية،وحيواناتها المفترسة.

وقد تجاوزوا في ذلك الحاجات الأَرضية العاجلة إِلى مايقع وراء المحسوس، يحدوهم إِلى ذلك الشوق الآفاق النائية التي تتألَّق بالضوءالأبدي وتتوارى فيها ظلمات الخوف من الفناء ([1])، محققين بذلك أعلى صور الإندماج والتكيف الروحي مع تلك البيئة بليلها ونهارها ،وبحرها، وسمائها، وسهولها، وقفارها؛ فهذا الشغف وتلك المحبة نتاج طبيعي لما صنعته تلك الطبيعة بنفوس الشعراء إذ سحرتهم بغموضها، وفتنتهم بعناصرها، وظواهرها، وهيمنت على أحاسيسهم بما أثارته في نفوسهم من عواطف تبدو جلية في بعض الأحيان، وغامضة في أحيان أخرى، تموج بالأسرار والتأويلات، وتجذب الانتباه بماتحمله من أسباب الدهشة والإثارة.

فالطبيعة تحاصر الوعي في كثير من الأحيان، ولكن مثل هذه الصور تجعل من الطبيعة إحساساً في ذواتنا يبسط هيمنته علينا، ويستثير أخيلة تداعب النفس مداعبة النسيم ([2])

لذلك يجد الباحث صور الشاعر العربي مأخوذة من بيئته، ومن واقعه، أَومن الموروث المختزن في ذاكرة اللاشعور، أو من عناصر الكون ومظاهر الطبيعة من حوله، كما تمثلتها نفسه الشاعرة التي امتزجت بها.

يقول علي الجندي: أحاط الشاعر الجاهلي في أوصافه بجميع ظواهر البيئة التي كان يعيش فيها، فوصف الصحراء وما فيها من جماد وحيوان، ومايعتريهما من رياح وسحب،

[1]- عبد البديع لطفي: عبقرية العربية في روئية الإنسان والحيوان والسماء والكواكب، مكتبة لبنان بيروت (1997)، ص92.

[2]- اليوسف يوسف : مقالات في الشعر الجاهلي ، دار الحقائق، بيروت (1985)،ص320.

وأمطار وظواهر المناخ المختلفة، وغير ذلك، بحيث يمكن القول معه بأنَّ الشاعر الجاهلي قد صور البيئة العربية تصويراً عامّاً، استوعب فيه جميع مظاهر الحياة في ذلك العصر([1]).

يقول شوقي ضيف :إذا كان الشعراءيُشخِّصون الطبيعة ويملأونها أو يملأون عناصرها من الشمس، والقمر، والسماء، والأرض، و الأشجار، والبحار، بالعواطف والوجدانيات والمشاعر؛ فلأنهم يريدون أن ينفدوا إلى الروح الداخلية للكون كله، تلك الروح التي تتشكّل أشكالاً مختلفة تحت بصائرهم ([2]).

وينقسم وصف الطبيعة عند الشعراء إلي قسمين: وصف الظواهر الطبيعية التي هي من خلق الله القادر المبدع، ووصف الآثار الإنسانية التي هي من صنع الإنسان.

والظواهر الطبيعية إما متحركة وهي : كل ما يجري فيه ماء، وينبض بالحركة، وإما ساكنة، وتتصرف إلى ماتشمل السماوات والأرض.ويطلق على الظواهر الطبيعية المتحركة : الطبيعة الحية، وعلى الساكنة: الطبيعة الصامتة،وتنقسم بحسب مظاهرها المتعددة إلى مكانية و زمانية.وتشمل الأولى: البحار، والجبال، والأمطار، والجداول ونحوها.وتشمل الثانية: الأوقات : كالليل، والنهار، والفصول كالربيع، والخريف، والشتاء، والصيف.

أما الطبيعة الحيَّة فتشمل عالم الأحياء بما فيها من نبات، وحيوان، وطيور، وحشرات، وغيرها ذلك مما خلق الله سبحانه وتعالى([3]),ومن هنا يُعدُّ الليل ـ تلك الظاهرة الطبيعية الزمانية الصامتة ـ جزءاً من الوجود المحيط بنا، ومثالاً حيَّاً لتغير الزمان الذي نعيش فيه ، وانتهاء ساعاته ماهو إلا دليل على إنتهاء تزامني للفترة العمرية الخاصة بكل كائن حي، فهو ــ إلى جانب كونه زمناً له بداية، وله نهاية ــ يشكل سلسلة من الليالي التي ماتلبث أن تُعدَّ من الماضي السحيق بكل ما تنطوي عليه من عناصر الظلام، والضوء، والطيف، وغيرها من المعاني المرتبطة بذلك الليل.

---

[1]- الجندي، علي: في تاريخ الأدب الجاهلي، دار المعارف القاهرة، ص345.

[2]- شوقي ضيف : في النقد الادبي ، دار المعارف (1981) ص 150.

[3]- الشافعي، خالد بن ربيع بن محمد : الليل عند شعراء الجزيرة العربية في العصر الحديث ط(2004) ص 3-4

الفصل الأول

مفهوم الليل وعلاقه بالطبيعة

مفهوم الليل عند العرب:

تعريف الليل لغةً واصطلاحاً

الليل عند علماء اللغة اسم للجنس ([1]) وقِيل: الليل واحد بمعنى جمع، واحدتهُ لَيْلَة، مثل: تمرة وتَمْر([2])، وقد جُمِعَ على ليالٍ على غير قياس ([3]) والليلُ ضِدُّ النّهار، والليل ظلام الليل، والنهار الضِّياء، فإذا أفردت أحدهما من الآخر قلت: ليلة ويوم، وتصغير ليلة لُيَيْلة، أخرجوا الياء الأخرى من مخرجها في اللَّيالي ([4]). قال تعالى:ﱡﭐﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱠ([5])
ويقال الليلة : ليلتك التي أنت فيها، والبارحة الليلة الماضية فيها. والبارحة الأولى التي كانت قبل البارحة ، وكأنها سميت البارحة من برحت، أي مضت وذهبت . أما القابلة فهي التي تأتي بعد ليلتك التي أنت فيها، وكأنها مأخوذة من الاستقبال ([6]). والليل خلاف النهار مذكر ومؤنث([7]).

وتقول العرب: هذه ليلة ليلاء، إذا اشتدت ظلمتها، وليلٌ اليل. وسمي الليل ليلا لأنه يلالي بالأشخاص حتى يتشكك الناظر في الشيء فيقول : هوهوثم يقول لالا ([8]).

ويُرجع ابن قتيبة تسمية الظلمة ليلاً الى الله تعالى حين يقول: قرأت في التوراة في أول سفر من اسفارها، أن أول ماخلق الله تعالى من خلقه السماء والارض، كانت الأرض خربة خاوية، وكانت الظلمة على القمر، وكانت ريح الله (تبارك وتعالى)، فرفّ على وجهه الماء، فقال الله تعالى: ليكن النور، فرآه الله حسنا، فميّزه من الظلمة، فسمّاه نهارا، وسمى الظلمة ليلا ([9])،أما حدّه فمن مغرب الشمس الى طلوع الفجر الصادق أو الى طلوع الشمس([10]).

بعض اجزاء الليل عند العرب:

---

[1]- ابن سيده،أبو الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي: دار الكتب بيروت(د.ت) المجلد الثاني ، السفر التاسع، ص44.
[2]- البستاني، بطرس: محيط المحيط، مكتبة لبنان ، بيروت (1977م)، ص34.
[3]- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب ، دارصاد بيروت (د. ت) المجلد الحادي عشر، ص607.
[4]- الأزهري، محمد بن أحمد: تهذيب اللغة : تحقيق: ابراهيم الإيباري، دار الكاتب العربي، الظاهرة (1967م)، ج15، ص443.
[5]- الليل، الأية: 2،1.
[6]- قطرب ، أبو علي بن المستنير : كتاب الأزمنة وتلبية الجاهلية،تحقيق: حنّا جميل حداد، مكتبة المنا،لأردن (1985م) ص 107.
[7]- البستاني ، بطرس :محيط المحيط، ص834.
[8]- الأزهري : تهذيب اللغة، ج15،ص443.
[9]- ابن منظور: نثار الأزهار في الليل والنهار، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت (1981م) ،ص9.
[10]- ابن قتيبة : أبو محمد عبدالله بن مسلم : المعارف ، تحقيق : ثروت عكاشة، دار المعارف (1981)،ص9.

ينقسم الليل عند العرب إلى عدة أجزاء ، حسب الزمن المخصص له. فإليك بعض أجزاءه.يقول ابن قطرب في الجزء الذي خصصه لليل وساعاته : قالوا في الليل، خرج بعد غشوة من الليل أي عشاء، والعشاء، اختلاط الليل إلى أن يغيب الشفق. وقالوا: الملث، بين العشاء والعتمة، وقالوا: بقطع من الليل، بسواد من الليل، أي بغلس.

قال المرار الفقعسي:

يَومَ ارتَمَتْ قَلبِي بِأَسْهُمِ لحْظِها ** أمُّ الولِيدِ في نِسَاءٍ غُلّس ([1])

والجون من الليل وسطه. وقالوا : في واحد الآناء من قوله تعالى([2])
وقالوا : الغبس بعد الفحمة، وغبس الليل واغبس واغطش ، قال الشنفرى:

دَعَسْتُ على غَطْشٍ وبَغْشٍ وصُحْبَتِي *** سُعارٌ وإرزيزٌ ووجرٌ أفكل([3])

وغبش وأغبش. ثم الغلس، ثم العسعس، قالوا : عسعس الليل عسعسة. قال تعالى([4])
أي اظلم . وقال بعضهم: عسعس: ولي.

وهذا من الأضداد وهو قول ابن عباس. قال علقمة بن قرط التيمي :

1- الملوحي ، عبدالمعين: موسوعة اشعار اللصوص واخبارهم ، دار الحضارة الجديدة ، بيروت (1993م) ، المجلد الثاني ، ج3، ص362.
2- ال عمران ، الأية: 113.
3- الشعراء الصعاليك ، (ديوان الشنفرى) ، تقديم : طلال حرب، الدار العالمية ، بيروت(د.ت) ، ص63.
4- التكوير ، الأية :17.

حتَّى إذا الصُّبــْحُ لها تَنَفَّســـا ** وانْجَابَ عنها لَيلُها وعَسْعَسَا ([1])

وقال احدهم:

قوارِباً مِن غَير دُجَن نســا *** مُدرَعات الليل لمَّا عسعسا([2])

فالمعنى هنا الظلمة: وقال بعضهم: غسا الليل يغسو غسوا، وأغسى ، ودجا يدجو دجوا وأدجى.

قال عمر بن براق:

إذا اللَّيلُ أدْجَى واكْفَهرَّ ظَلامُهُ *** وصَاحَ من الإفْرَاطِ بُومٌ جَواثِم([3])

وأغطش الليل ، قال تعالى:ﭐ□□□□□ ([4])
وقال رؤبة بن العجاج:

ارمِيهِم بِالنَّظَر التَّغْطِيش ** وجَهدَ أعوَامٍ نَتَفنَ رِيشِي ([5])

ويقال: غسق الليل يغسق غسوقا وغسقا، أي أظلم. قال تعالى:ﭐ([6]).

وقال تأبط شرا:

عَارِي الظَّنَابِيبِ ممتدٌّ نَواشِره *** مِدلاجٌ أدهم واهِي المَاء غسَّاقُ ([7])

ويقال ايضا: سجى الليل وأسجا ويوم أسجى ، وليلة سجواء، وهي اللينة الساكنة , وبعير أسجى, وناقة سجواء, أي أديبة. وتحندس الليل من الحندس. وليلة مدلهمة, ومطلحمة، وخدارية.

1- قطرب: الأضداد، تحقيق : حنا حداد، الرياض(1984م) ، ص132.
2- اللغوي، أبو الطيب: الأضداد، تحقيق: عزة حسن، دمشق(1963م) ، ص489.
3- الشعراء الصعاليك ، (ديوان عمرو بن براق) ، تقديم : طلال حرب، الدار العالمية ، بيروت(د.ت) ، ص108.
4- النازعات: الأية : 29.
5- ديوان رؤبة بن العجاج ، تصحيح: وليم بن الورد، (1903)،ص79.
6- الفلق، الأية :3.
7- ديوان الصعاليك (تأبط شرا) ، شرح: يوسف شكري فرحات، دار الجيل ، بيروت، ص145.

والقترة، الظلمة مع الغبار.قال تعالىٱُّ ٱلۡخ لم لىَّ[1]، وابهار الليل ابهراراً، اسود.وقالوا: السمر الظلمة ايضا ، وانما قيل لحديث الليل السمر لانه في الليل.
يقول عياض بن خويلد الهذلي:

ومَاءٍ وردْتُ قُبَيلَ الكَرَى *** وقد جَنَّهُ السَّدف الأَدْهَم[2]

الليل و الكواكب و النجوم:

إنَّ الكواكب و النجوم من عناصر الليل التى ما زالت تخفِّف ظلمته و تثير فى النفس مزيجاً من السعادة و التناغم اللذين ينبعثان من جوانح الروح و الإنسانية ، و يعبّران عما يختلج فيها من مشاعر و مكنونات ، وهى بذلك لا تقتصر على ما تبعثه من جمال نوراني ، بل تتجاوزه الى ذلك السمو الروحي الذى يتواصل معها محققا أعلى مستويات التأمل النفسى و الجمالى.

ولقد كان العرب قديماً على معرفة دقيقة بحركات النجوم و الكواكب و الأنواء و علاقتها بالظواهر الطبيعية، و تعيين الأوقات و ضبط الأزمنة على مدار اليوم و الشهر و السنة وقد ورد فى كتب الأدب و اللغة الكثير من المعلومات الفلكية، و المعتقدات الجاهلية، و التعبيرات اللغوية التى تصور لنا عمق هذه المعرفة من جهة و مدى تاثيرها فى حياتهم من جهة أُخرى .

يقول ابن قتيبة فى مقدمة كتابه (الأنواء فى موسم العرب) والذى يعد من اوائِل الكتب التى وصلتنا فى هذا المجال :"هذا كتاب أخبرت فيه بمذاهب العرب علم النجوم، و مطالعها، ومساقطها، و صفاتها، و صورها،......، و أوقات التّبدّي لتتبع مساقط الغيث ، وارتياد الكلأ، وأوقات حضور المياه، وما اودعته العرب اسجاعها فى طلوع كل نجم من الدلالات على الحوادث عند طلوعه. [3]

---

[1]- عبس: الأية : 41.
[2]- ديوان الهذليين، ج3، ص56.
[3]- ابن قتيبة: ابو محمد عبالله بن مسلم:الانواء فى موسم العرب،وزارة الثقافة والاعلام ،بغداد (1988م) ، ص1.

و عرفوا كذلك ما يسمى (بالأنواء) وهى نجوم معروفة الطلوع و السقوط و عددها ثمانية وعشرون، بعدد منازل القمر ([1]).

لذا "تعلقت قلوب العرب و ابصارهم بالسماء و منازل النجوم و الانواء ([2])، وارتبطت بها حياتهم فكانت سقف بيوتهم ، وسبب معايشهم و انتجاعهم"([3]).

ولقد احتلت النجوم و الكواكب مكانة لا تقل عن المكانة التى احتلتها الصحارى، و القفار، والجبال، و القمر، فى شعر الجاهليين منذ بداية العصر الجاهلى والى نهايته ، و امتزجت بكثير من القيم و المفاهيم فى أشعارهم ، و من أوائِل تلك القيم الإهتداء بها ليلاً فى مظان الصحراءو مجاهلها.

والإهتداء بالكواكب،عادة قديمة عند العرب، إذ كانت تهدي سيارة البحر، وسراة الليل في القفر والجبال . يقول تأبط شراً مادحاً أحد أصدقائه:

يَرى الوَحشَةَ الأُنسَ الأَنيسَوَيَهتَدي**بِحَيثُ اِهتَدَت أُمُّ النُجومِ الشَوابِكِ([4])

فالشاعر حريص على أن يؤكد هذه الميزة لصاحبه الذي بلغ به تشرده أن أصبحت الوحشة أنسه، والصحراء الغامضة المجهولة كتابا مفتوحا يهتدي فيه كما تهتدي الشمس في فلكها.

وقال احد الشعراء واصفاً حياة تشرُّده وصحبه في الصحراء وقد اتخذوا من النجوم أدوات للإستدلال بها ليلاً وبوصلةً للنجاة من الهلاك.

وركبٍ بأبصار الكواكب أبصروا ... ضلالَ المهارَي فاهتدَوا بالكواكبِ
يكونون إشـــراقَ المشارقِ مرَةً ... وأخرى إذا آبوا غــروبَ المغارب([5])

1- ابن الاجدابى،ابو اسحاق ابراهيم بن اسماعيل:الازمنة و الانواء،تحقيق: عزة حسن،دمشق (1946م)، ص 10.
2- ابن قتيبة، الانواء فى موسم العرب، ص 10.
3- القيروانى، ابوعلى الحسن بن رشيق: العمدة فى محاسن الشعر و ادابة و نقدة، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد،دار الجبل ،بيروت (1972م)،ج 2،ص 252.
4- ديوان الصعاليك (تأبط شراً)، ص 153.
5- الملوحي، عبد المعين: موسوعة أشعار اللصوص وأخبارهم، المجلد الثالث، ج5، ص646.

فحينما يرون ظلال المهاري منعكسة على الكواكب ليلاً يتبعون تلك الكواكب ليصلوا الى غاياتهم، لذا نجدهم تارةً في مشارق الأرض وتارةً في مغاربها. وقال شاعرٌ أخر في وصف لصٍّ:

توخى بها مجرى سهيلٍ وخلفهُ ** إلى الشام اعلامٌ تطول وتقصرُ ([1])

حيث اتخذ اللص من (النجم سهيل) علماً يستدل به على طريق اليمن بعد أن سرق الإبل من الشام التي أصبحت خلفه، والجبال في طريق سفره تطول في النهار لأنه قادر على إستبيانها، ثم يغطيها الليل فتُرى قصاراً، وهو بذلك يثبت تلك القمة الإيجابية لليل وهي القدرة على إخفاء الأشياء وسترها تماماً كما أخفى تلك الإبل المسروقة، وحجبها عن الأنظار ولفَّها بظلامه .

ويعزوا بعض الشعراء الجاهليين هطول الأمطار وغزارتها إلى النجوم وأنوائها، يقول لبيد في معلقته واصفاً ديار محبوبته وقد رحلت عنها وتركتها لأثار الطبيعة ومجاهل الصحراء:

رُزِقَتْ مَرَابِيْعَ النُّجُومِ وَصَابَهَا *** وَدْقُ الرَّوَاعِدِ جَوْدُهَا فَرِهَامُهَا([2])

مرابيع النجوم: الأنواء الربيعية وهي المنازل ألتي تحلها الشمس في فصل لربيع ، يقول رزقت الديار امطار الأنواء الربيعية فأمرعت واعشبت وأصابها مطر ذورعود من السحائب .

وقد تعرض أعشى باهلة كذلك للكواكب، وأثرها على الأمطار عندما رثى أخاه المنتشر.

إِنَّ الَّذِي جِئْتَ مِنْ تَثْلِيثَ تَنْدُبُهُ **مِنْهُ السَّـمَاحُ وَمِنْهُ النَّهْيُ وَالْغِيَرُ
نَعَيْتَ مَنْ لا تُغِبُّ الحَيَّ جَفْنَتَهُ ** إِذَا الْكَوَاكِبُ أَخَطَا نَوْءَها الْمَطَر([3])

يقول أنَّ أخاه ذا مكانة عالية لما له من الكرم والسماحة والتغير والتأثير على قومه ، لذلك كان فقده صعباً عليه وعلى قومه لدرجة أنهم لايستطيعون نسيان فضله عليهم في زمن حجب الأنواء المطر وإنحلال القحط والشدة.

1- المرجع السابق، ج5، ص645.
2- جمهرة أشعار العرب: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي: تحقيق: على محمد البحادي: الناشر : نهضة مصر، ج1، ص 238.
3- المرجع السابق، ج1، ص 569ــ570 .

أما الجوزاء فقد إرتبطت بالريح في أشعارهم ، فهاهو أحد الشعراء اللصوص يستعطفها لكي تهبَّ عليه لتمحو أثره، فلا يقتص أثره ويلاحق، يقول:

أيَا بَارِحَ الجَوزَاءَ مَالَكَ لاتَرَى ** عِيَالَكَ قَد أمْسَوا مَراميلَ جُوَّعا([1])

فقد نسب إلى الجوزاء عياله؛ لتحس بألم جوعهم مساءً وحرمانهم من الزاد الذي لاينسني الشاعر الحصول عليه إلا بالسرقة، وأنَّى تكون الطرق لذلك الكسب مالم يهُب بارح الجوزاء الذي أوكل اليه مهمة إخفاء أثار جريمته.

وتغير منازل القمر مسؤول في شعر أبي القمحان القيني عن تصبُّب مياه الجداول حيث يقول:

تراءت نُجومُ الأخذِ في حَجَراتِهِ ** وتَفَهَقُ في إتراعها في الجداولِ([2])

هنا نجد أن الشعراء الجاهليين كانوا على علم بمجموعة النجوم التي يقطعها القمر في كل دورة كامل له في فلكه حول الأرض، وتُسمَّى منازل القمر، حيث ينزل كل ليلة في منزلة منها ثم يعود بعد إنقضاء ثمانية وعشرين يوماً إلى النجم نفسه الذي أتخذ أصلاً للحركة، وتُسمَّى هذه المنازل ب(نجوم الأخذ) لأن القمر يأخذ كل ليلة منها منزلاً معيناً. قال تعالى :[illegible]([3]) وقال أيضاً: [illegible]([4])، والشاعر في البيت السابق يرسم لنا منظراً بديعاً لتصبُّب الجداول وامتلائها بالماء تبعاً لما يستلزمه تغير منازل القمر من تغيرات أرضية ومناخية.

ولم ينس الشعراء الجاهليون كذلك ما كان لتلك النجوم والكواكب من مكانة عالية في أذهان العرب ، حيث نُسجت منها العديد من القصائد والمقطوعات التي تغنى بها الشعراء بمفاخرهم وعُلُوّ نسبهم. يقول قيس بن الخطيم في حربهم على مزاحم وهو يصف قوة واندفاع السهام على حصونهم:

رَمَيْنَا بِهَا الآطَامَ حَوْلَ مُزَاحِمٍقَوَانِسُ أُولى بَيْضِها كَالكَوَاكِبِ([5])

حيث شبه بياض رؤوس السهام بالكواكب اللامعة في الليل الدامس.

1- الملوحي، عبد المعين: موسوعة أشعار اللصوص وأخبارهم، المجلد الثالث، ج5، ص75.

2- المرجع السابق، ج5، ص75.

3- يونس، الاية :5.

4- يس،الأية: 39.

5- جمهرة أشعار العرب: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي: تحقيق: على محمد البحادي: الناشر : نهضة مصر، ج1، ص 510.

ويقول لبيد في فخره بقومه وهو يصف اقبالهم واندفاعهم نحو اعدائهم.

إن يفزعوا تُلقَ المغَافِرُ عندهم *** والسِّنُّ تلمعُ كالكواكب لامُها ([1])

يقول في ذلك : إنهم عند اقبالهم للحرب يلقون الدروع ، ويقابلون اسنان الرماح والسيوف التي تشبه الكواكب في نصوعها وبياضها بصدورهم شجاعة واقبالاً.

ويحزو هذا الحزو أيضاً أعشى باهلة في ذكر محاسن أخيه المنتشر

أَخُو حُروبٍ وَمِكْسَابٌ إذا عَدَمُوا *** وفي المَخَافَةِ مِنْهُ الجِدُّ والحَذَرُ

مِردَى حُروب شِهابٌ يُسْتَضَاءُ به *** كَمَا أَضَاءَ سَوَادَ الصَّخْيَةِ القَمَرُ([2])

حيث وصفه بأنه كرارٌ وشجاعٌ في الحرب وهو بذلك كالشهاب الذي يُضيء للناس ظلمات الليل لفضله ومكانته بينهم.

وكذلك استخدموا لفظ النجوم والكواكب في وصفهم لبعض الحيوانات ، فهاهو النابغة الذبياني يصف ثوراً يُعارك كلاباً .

حتى إذا ماقَضَى مِنْها لُبَانَته ** وعَاد فِيهَا بإقِبالٍوإدْبَارٍ

انقضَّ كالكوكب الدُّرِّيُّ منصلتاً ** يهوي ويخلطُ تقريباً بإحضَار([3])

الشاعر يصف لنا الثور وهو يعارك تلك الكلاب وقد إنقضَّى عليها بسرعته واندفاعه كالكوكب الدري الساطع يرمي بها يُمنةً ويسرى.

أما ارتباط النجوم والكواكب بعلو المكانة والشرف فنجده ماثلاً في قول أبي الطمحان القيني:

1- المرجع السابق، ج1، ص 268.

2- المرجع السابق، ج1، ص 589ــ 590.

3- جمهرة أشعار العرب: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي: تحقيق: على محمد البحادي: الناشر : نهضة مصر، ج1، ص 195.

وإنّي من القَومِ الَّذِين هُمُ هُمُ ** إذا مَات مِنْهم سَيّدٌ قَام صَاحِبهُ

نُجومُ سَماءٍ كُلَّمَا غَابَ كَوكبٌ ** بَدَا كَوكبٌ تأوِي إليهِ كَواكِبهُ ([1])

ومن خلال البيتين السابقين يعد انقضاء الزمن من المعاني التي احتوتها النجوم والكواكب في شعر الجاهليين، فالأيام تكر، والليالي تمضي بالإنسان إلى النهاية في استمرارية لا تتوقف عند حدٍّ معيّن، وفي هذا الإقرار من الشاعر معنًى يتم عن نظرته الواقعية للحياة، وتقبله الإيجابي لكل المتغيرات التي تحصل على مسرحها، ومن المعاني التي التفت بوشاح الليل وسواده، واستضاءت بنور كواكبه ونجومه، تلك المعاني التي يعبر فيها الشاعر عن الأثر الذي يُوقعه الحب في نفس كل عاشق عانى مرارةً مراعاة النجوم، والهيام مع طيف المحبوبة ليلاً في خلجات الصحراء وبين طيّات كثبانها الرملية، يقول تأبط شرّاً:

لقَد قَل الخَليّ وقَال حُلْسَاً ** بِظَهرِ اللَّيل شُدَّ بِه العُكومُ

لطيفٍ من سُعادِ عنَاك مِنها ** مَراعاةُ النجوم ومن يهيمُ ([2])

علاقة الليل بالخوف والظلام:

إنّ الشعور بالخوف من الأَحاسيس التى طرقت فؤاد الشعراء الجاهليين وهي لون من ألوان المعاناة التي كان يزرح تحت وطأتها فمن وظائف الظلمة البعث على الخوف لماتجنيه من أخطار خاصة إذا ما زيد على السواد الحالك المطر والريح مما يجعل نجاة الشاعر وكفاحه أشبه بتخليصه من هؤلاء، وسُرى الليل إقداماً على المتالف ([3]). وقد تنوع هذا الإحساس من شاعر إلى آخر. بإختلاف الظروف والدواعي الباعثة له، وسيحاول الباحث رصد صور المخاوف وتحدي الظلام الدامس التي رسمها الشعراء الجاهليون في عصرهم، والتي تجلّت في عدة

[1]- الملوحي، عبد المعين: موسوعة أشعار اللصوص وأخبارهم، المجلد الأول، ج1، ص75

[2]- ديوان الصعاليك (تأبط شراً)، ص 153.

[3]- الغيضاوي، علي: الإحساس بالزمن في الشعر العربي من الأصول حتى نهاية القرن الثاني للهجرة، ج2، ص146.

محاور كان الأَول منها متمثلاً في خوفهم من الموت والهلاك، يقول الشاعر صخر الغي قد طال ليله وعظم مصابه:

أرقتُ فبتُ لم أذق المنايا *** وليلى لا أحُسُّ له إنصراما

لعمرك والمنايا غالباتٌ *** وماتغني التميمات الحِماما ([1])

فليل هذا الشاعر بلا نهاية، وكأَن الظلمة قد أَحاطت به من كل جانب، فباتت نفسه تعاني، وقد أَصابها الأَرق والإنكسار أَمام حقيقة الموت، وحتمية الفناء.

وقد دلّ ذكر ظلام الليل وسواده على الهموم والحزن، فهاهو أمرؤ القيس يذكر مالقيه في ظلمة الليل الدامس ، وقد طال عليه وأسدل عليه ظلمته وجلب اليه الهموم والحزن والخوف والجزع.

ولليلٍ كَمَوجِ البَحرِ أرخَى سُدولهُ *** عليَّ بأنواعِ الهُموم ليبتلي

فَقُلْتُ لَـــهُ لَمَّا تَمَــطَّى بِصُلْبِهِ *** وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاَء بِكَلْكَلِ

أَلاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلاَ انْجَلِى *** بِصُبْحٍ، وَمَا ٱلإصْبَاحُ منك بأمثل ([2])

ومما أشار اليه سواد الليل وظلامه ،الستر والإستعداد للسفر خفية من الناس ، ففي ذلك يقول عنترة بن شداد متحسّراً على فراق محبوبته :

إنْ كُنتِ أزمَعتِ الفِراق فإنما *** زُمَّت ركابُكم بليلٍ مظلم ([3])

فالشاعر يستدل على عزم محبوبته على الفراق بزم الأَبل وتجهيزها بالليل المظلم استعداداً للسفر خفية وتستُّراً بظلامه.

ويرى الباحث أنّ الظلام قد ارتبط ايضاً بالشجاعة والغارة على الأَعداء ليلاً، يدل على ذلك قول الشنفرى :

1- ديوان الهذليين ، ج2، ص92.

2- الشيباني، أبو عمرو،شرح المعلقات التسع، تحقيق: عبدالمجيد همو، ص100 _ 157

3- لجنة من الأساتذة، المجاني الحديثة، ج1، ص 11.

فأيَّمتُ نسواناً وأيتمتُ ولدةً *** وعدتُ كما أبدأتُ والليل اليلُ ([1])

فالشاعر قد استخدم ظلام الليل في تنفيذ غارته على أعدائه مستخدماً مع ذلك شجاعته في الهجوم عليهم ، وقتلهم ،وعاد في تلك الظُلمة تاركاً نساءهم أيامى ، وأولادهم يتامى.

ومن نسج على هذا المنوال السابق، الشاعر أسماء بن خارجة في قوله:

بل ربَّ خرقٍ لا أنِيس بِهِ *** نَأبِي الصُّوَى متماحلٍ سَهبِ

كابدتُهُ بالليل أعسِفُهُ *** في ظُلمةٍ بِسواهم حُدْبِ ([2])

فشجاعة هذا الشاعر نجدها في هجومه على أعدائه ومكابدته الصحراء الخالية مع تحمل مشاقها ليلاً متحدياً وحوشها ومجاهلها في ذلك الظلام الدامس المخيف.

وليس بغريبٍ أن يواجه الشاعر الجاهلي وحوش الصحاري وسباعها، فهاهو عنترة بن شداد يقول:

أطوي فَيافِي الفَلا والليل مُعتَكرٌ *** وأقْطَعُ البِيد والرمْضَاءُ تستعرُ([3])

استعرض الشاعر شجاعته في ظلام الليل المعتكر بقطعه الصحاري ومواجهته مجاهلها، وسباعها، مقابلاً ذلك التحدي بتحدي آخر وهو مواجهته الصحراء الشديدة الحرارة في وضح النهار ليؤكد لنا قدرته في مواجهة اقسى الظروف التي تحيط ببيئته.

ونلخص في نهاية موضوع الليل وظلمته وإرتباطهما بالخوف في أشعار الجاهليين، إلى تلك الدور الفاعل لليل، وحوادثه المرعبة والمؤثرة في نفوس الشعراء الجاهليين من معانٍ إستطاع الشعراء من خلالها التنفيس عمَّا يضطرب في ذواتهم التي أَرعبتها ملامح الحياة وطبيعة العيش في ثنايا الصحراءالقاحلة .

---

[1]- الشيباني، أبو عمرو،شرح المعلقات التسع، تحقيق: عبدالمجيد همو، ص100.

[2]- الأصمعيات، الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن علي بن أصمع، تحقيق: محمد شاكر- عبد السلام محمد هارون، ن، دار المعارف، ط7، ج1.

[3]- مجهول، شرح ديوان عنترة، ص 64.

الفصل الثاني

صور الليل في شعر الجاهليين

صور الليل في الشعر الجاهلي

لقد كان للحياة العربية و ما تجْلُهُ و تقدسه من معقدات و قيم ، أثرها الفعال في تشكيل نفسية الشاعر الجاهلي، و تحديد مفاهيمه، و مُثُلِه العُليا في الحياة و قد سأَل كسرى أنو شروان بعض خطباء العرب عن أخلاقهم ، فقال:" العز و الشرف و المكارم ، و قرى الضيف ، و إجارة الخائِف ، و أداء الحمالات ، و بذل المُهج في المكرمات ، و هم سُراة الليل و ليوث الغيل، و عمَّار البر، و أُنس القفر، أَلِفوا القناعة، و شنفوا الضراعة، لهم الأخذ بالثأر و الأنفة من الجار، و الحماية للذمار " .

و كان الشاعر الجاهلي يعيش في إطار عصره ، و يحتوي بين جوانحه مفاهيم مجتمعية و قيمه السائدة التي حاول ترسيخها بإسلوبه الخاص ، و تطبيقها بسيفه و رمحه و قوسه ، و قد أشار في شعره إلى إبراز تلك القيم الأخلاقية على الرغم من صِراعه مع الطبيعة و مع مجتمعه ، راجياً بذلك إحراز المكانة الرفيعة و القيمة الإجتماعية العادلة ، التي تجعل لحياته معنى و تجعله جديراً بالقيادة و البقاء([1]) .

وسيتم من خلال هذا الفصل استنباط تلك المعايير، والقيم الخاصة بالتَّرقُّب والشجاعة، وقوة البأس والكرم في أشعار الجاهليين، والتي كان الليل هو مجال تحقُّقها وإنجازها على أرض الواقع.

أولاً/ ليل القمر و المسامرة

لفت القمر باطوارهِ المختلفة نظر الشعراء الجاهليين فاثار دهشتهم, و سحرهم بفتنتهِ و جمالهِ , فهيمن علي احساسهِم , وفجَّر فيهم مشاعر غامضة تموج بالإعجاب و الإثارة.فتعاملوا معه باعتباره جزءاً مهماً من الطبيعةِ و عنصراً متميزاً من عناصر الليل التى تزيده رونقاً و جمالاً .و القمر فى التجربة الشعرية الجاهلية يتلون بانفعالات الشاعر ورؤيته مع ربطه بالليل واجزائه. فيصبح حضوره حضوراً متعدد ألألوان و السمات وذا دلالات نفسية متنوعة حيث

1- المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد(1958)، ج2، ص248- 249

تبدَّلت ملامحه و تغيرت واختلفت دلالاته و تباينت صوره تبعاً لتنوع المشاعر و المواقف عند الشاعر و عندما تتبع الباحث مواضع ورود القمر فى بعض الشعر الجاهلى وجد انه لم يُحظ بقصائد شعرية كاملة. إذ لم يَعثُر فيما وقع بين يديه من مصادر الأدب على دراسة متخصصة تولي عنصر القمر فى أشعار الجاهليين اهتماماً واضحاً و إنَّماً ورد متخللاً القصائد كابيات متفرقة لكنها زاخرة بالمعانى و الدلالات التى تعبِّر عن موقف الشاعر و تجربته الشعريه.

وقد حرص الباحث فى هذا الفصل على تبين المواضع التى ورد فيها القمر فى شعر الجاهليين مرتبة حسب كم الأبيات فى كل موضع:

1- القمر و المرأة:

لقد لفت بأطواره المختلفة نظر الشاعر الجاهلى و استوحى من خلاله الكثير من التشبيهات التى وصف بها المراة و كان طوره بدراً أكثرها استخداماً في هذا الوصف ؛لما يحمله من صفات الإكتمال و البياض و الوضوح.

ويأتي عنترة فى طليعة هؤلا الشعراء الذين قرنوا اسماء محبوباتهم بجمال البدر فيقول :

وبَدَتْ فقلتُ البدر ليلة تِمِّهِ   قد قلَّدَتْهُ نجومها الجوزاءُ

سَمَتْ فلاح ضياءُ لؤلؤ ثغرها   فيه لداء العاشقين شفاءُ

سجدتْ تُعظِّم ربها فتمايلتْ   لجلالها اربابنا العظماءُ ([1])

1- عنترة : شرح الديوان، ص5.

فقد شكل تمام البدر عنصراً مهما فى إظهار جمال عبلة، و ذلك فضلاً عن حرصه على استحضار عنصرين اخرين من عناصر الجمال البارزة ، هما نجم الجوزاء والنجوم الاخري المحيطه به ، ليضفيا بضوئهما الساحر مزيداً من الجمال .

كما أَنَّ الشاعر عمد إلي احاطة محبوبته بهالة من التقديس والتعظيم ،حيث وصل بها الي مكانة الارباب ، بل جَعَلَ الأرباب تتمايل تعظيماً لجلالها ، في إشارة واضحة إلى علوِّ مكانتها عند الشاعر .

وممن أشار بذلك ولفت نظر الباحث بالضَّرب على هذا المنوال: الشاعر أمرؤ القيس في وصف محبوبته

تُضِيءُ الظلامَ بالعشيِّ كأنها *** منارةُ مُمْسِي راهبٍ متبتِّلِ ([1])

أي إنَّها وضيئة الوجه إذا ابتسمت بالليل رأيت لثناياها بريقاً وضوءاً ، وإذا برزت في الظلام استنار وجهها وظهر جمالها حتى يتغلب على ظلمة الليل.

2- القمر والرثاء :

إتخذ الشعراء الجاهليون من القمر وسيلة لإبراز قيمة المتوفى الذي كان كثيراً ما يوصف بصفات حسنة ، ترفع من قدره بين البشر ، كالكرم والشجاعة والإقدام وإغاثة الملهوف ، وقد لجأ بعضهم إلى ربط القمر بها ، ليكسبها مزيداً من الدلالات النفسية والرمزية كي تتوازى مع عمق الفاجعة.

وقد بدأ هذا جلياً في رثاء لبيد بن ابي ربيعة لِأخيه أزيد الذيداني ،حيث ذكر بعض ماثره ومحامده واصفاً كرمه العميم بضوء القمر الذي لايبخل علي الناس بنوره مهما كانت الظروف.

أبْكَي أبَا الخرَّازِ يوم مَقَامَةٍ *** لِمُنَاخِ أضْيَافٍ ومأوى مُقْتِرِ

[1]- الزوزني، شرح المعلقات السبع ، تحقيق : عبد الجبار نبيه الجندلي، ص48.

والحي إذ بَكَرَ الشتاء عليهم *** وعَدَتْ شآميةٌ بيوم مقمرِ

الفيت أربد يُستَضَاءُ بوجهه *** كالبدرِ غير مُقَتّرٍ مستأثر ([1])

وتتكرر صور المرثي واقترانه بالقمر مره ثانية عند الشاعرة الخنساء لِأخيها صخر ، ذاكرةً شمائله ، وتشبيه كرمه وفضله بالبدر الذي لا يختبيء في الليل من أمام القُصَّاد ،فتقول :

جمٌّ فواضِلُهُ تَندَى أنَامِلُهُ *** كالبدَرِ يجلو ولا يخفي علي الساري ([2])

وتكرر المعني نفسه في حديثها عنه بقولها:

وأبكي اخاً كان محموداً شمائِلُهُ *** مثل الهلال منيراً غير مغمور([3])

فتصف انتشار صيته أخيها وفضائله بانتشار نور الهلال ومايحمله من خير علي الكون.

3- القمر و الفخر:

المجتمع الجاهلى مجتمع قبلي , قائم فى أساسِهِ على التعصُّب للقبلية ، و الانتصار لها سواء كانت على حق او على باطل ، و بما أنَّ الشاعر الجاهلي جزء لا يتجزأ من القبيلة، فقد غدا المتكلم باسمها و المدافع عنها ، لذا قد لجأ إلى ربط فخره بالقمر ، لما يمتاز به من صفات السمو و الوضوح و الأصالة.

فهذا الشاعر الحطيئة يخاطب زوجته أمامه – بعد ان عيَّرته بنسبه و بقومه ال عوف - مفتخراً بانتمائه إلى قبيلته، وبأنه يسير على خطى أجداده و يقتدي بحسبهم الذي يضئ الدرب له في حياته كما يُضيءُ القمر الليل فيهتدى السارى به ، فيقول:

ســــــيري أُمامُ فَإِنَّ المالَ يَجمَعُــهُ*** سَيبُ الإِلَهِ وَإِقبالي وَإِدباري

1- لبيد: الديوان، ص95.

2- الخنساء وليلى ألأخيلية : ديوان الباكيتين، شرح يوسف عيد، ط1، 1992، ص92.

3- مرجع سابق ص72.

إِلى مَعاشِرَ مِنهُم يا أُمــامُ أَبـــــي*** مِن آلِ عَوفٍ بُدوءٌ غَيرُ أَشرارِ

نَمشي إِلى ضَوءِ أَحسابٍ أَضَأنَ لَنا ***ما ضَوَّأَت لَيلَةُ القَمراءِ لِلساري([1])

فالليلة القمراء _ في البيت _ جاءت لتعمق الإحساس بصدق الإنتماء، واستمرارية السير على الطريقة التي رسمها الأباء والأجداد، تشير بحاجته الملحة لهذا الإقتداء، والذي وجد له شبيهاً في القمر الذي يضيء ليل الساري.

ويبين الشاعر عمارة بن الوليد القرشى أنَّ كلَّ شئ جميل على هذه الأرض قد خُلق من أجلهم ، حيث يتوارثون أحقيتهم به كابراً عن كابرٍ، وذلك منذ نُشُوء القمر و الشمس، فيقول

خُلِق البيضُ الحسانُ لنا ***** وجيادُ الخيلِ و الخيرُ

كابراً كنَّا احق بـــــها ****** حيث صيغ الشمس و القمر ([2])

و تخصيص الشاعر للقمر و الشمس بالذات ربما يوحى بأنّ هذا الخير الذي نشأوا عليه، خُلِق معهم منذ أنْ خُلِق القمر و الشمس فى إشادة واضحة بأصالتها الموغلةُ فى القِدَم ، و كأن الذي خلقهما ،خلق معهما هذا الخير لهم.

4- الليل والمسامرة:

تعد المسامرة عند العرب الجاهليين ضرب من ضروب المكاشفة والتحدث مع الغير في ذاك الليل البهيم الذي يعد ساتراً لهم من عيون الغير ممايحملهم على الفضفضة والبوح بما في دواخلهم إلى من يتسامرون معه في ذلك الهدوء المرح.

ولم تأت المسامرة على شكل قصائد منفردة وإنما جاءت متخللة لبعض القصائد في شكل أبيات متفرقة في دواوين الشعراء ويأتي في طليعة هؤلاء الشاعر أمرؤ القيس عندما خلا بمحبوبته قائلاً:

1- الحطيئة: الديوان ، رواية ابن حبيب ، ط1، 1995،ص190.

2- النعانعة : شعر كنانة في الحاهلية والاسلام، ص550.

فَقَالَتْ: سَبَاكَ اللهُ، إنّكَ فَاضِحِي، ... ألَسْتَ تَرى السُّمّارَ وَالنّاسَ أحوالي

فَقُلْتُ: يَمِينُ اللهِ أبْرَحُ قَاعِداً، ... وَلَوْ قطّعوا رأسِي لدَيكِ وأوْصَالي (1)

يصور لنا الشاعر مسامرته لمحبوبته وسط أهلها متحدياً بذلك كل من حولها، مما جعلها تلح عليه بعدم المخاطرة بهذا اللقاء المخيف، فأكد لها حتى لو اضطر الأمر إلى قطع رأسه فهو لن يتراجع، فدخل عليها وسط الظلام وسامرها وجالسها دون فزع.

ثانياً/ ليل الكرم و الايثار:

الكرم من العادات و القيم التي اقترنت بالليل عند العرب قديماً ، بل أنَّه يعد من التوابع الأساسية للبطولة ، و رديفاً للافتخار بالأنساب ، و مبدأ من مبادئ السيادة و القيادة التي طالما حلم بها بعض الشعراء وبالأخص الشعراء الصعاليك.

و قد كان الكرم يحمل معاني اجتماعية مقدسة ، فرضتها طبيعة الصحراء التي يعيشون فيها و شح مواردها ، و طبيعة حياتهم غير المستقرة ، الأمر الذي نمَّى فيهم هذه الفضيلة ، فتأصلت في نفوسهم ،

و من سننهم أنّهم كانوا يوقدون النار ليلاً على الكثبان و الجبال ، ليهتدي اليهم التائهون و الضالون في الفيافي ، فإذا وفدوا عليهم آمنوا حتى لو كانوا من عدوهم ، و يدور في شعرهم الفخر بهذه الميزات و أنَّ كلابهم لا تنبح ضيوفهم لما تعودت كثرة الغادين و الرائحين .(2)

و اشتهر عندهم بالجود و الكرم كثيرون ، أمثال حاتم الطائي الذي ضُربت الأمثال بكرمه ، و هو يصوره في كثيرٍ من شعره كقوله :

إذا ما بَخِيل القومُ هرَّت كلابه *** و شَقَّ على الضَّيفِ الضَّعِيف عقورها

فإني جَبانُ الكلْبِ بَيتِي مَوطأ *** أجود إذا ما النَّفسُ شَحَّ ضَمِيرها

1- أمرؤ القيس: ديوان القيس، تحقيق : محمد أبو الفضل، ص31.

2- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص68.

أُشَاوِر نَفْس الجُوادِ حتى تُطِيعُني *** و أترك نفس البُخلِ لا استشِيرها

و ليسَ على نَارِي حجابٌ يكنُّها *** كمستوبصٍ ليلاً و لكن أنيرها ([1])

ويقول عروة في ذاك المنوال (الكرم) خارجاً على نظام قبيلته ، و رافضاً تلك الهيمنة الاقتصادية المتمثلة في انحصار موارد الثراء و الغنى في أيدي سادة القبيلة الأشحَّاء البُخلاء ، الذين لم يجعلوا للفقراء في أموالهم حقاً معلوماً ، بل تفننوا في استبعادهم و اذلالهم ، مما دفع عروة إلى مهاجمة تلك الأموال و توزيعها على الفقراء .

أخذتْ معاقِلها اللقَاح لمجلسٍ *** حولَ ابن أكثم من بني أنمار

و لقد أتيتُكُم بليلٍ دامسٍ *** و لقد أتيتُ سُراتَكم بنهار

فوجدتُكُم لِقحاً حُبِسنَ بخُلَّةٍ *** و حُبسنَ إذا صُرِّينَ غير غِزارِ

منعوا البكارةَ و الأفالَ كليهما *** و لهم أضنُّ بأُمِّ كلَّ حِوارِ ([2])

فقد طلب معروفهم في الليل الشديد الظلام ، و في النهار أمام الملأ ، و على رؤوس الأشهاد ، فلم يصب منهم خيراً ، مع وجود عدد كبير من النوق و الإبل في المكان الذي ينزلون فيه ، و التي كانت تعاني هي أيضاً من احتباس اللبن في ضروعها بسبب عدم حلبها ، و قد شبه عروة هؤلاء القوم بالنياق التي تأكل نبات النحلة الذي يقلل من إنتاج اللبن ، و يؤدي إلى احتباسه ، و من ثم تلاشيه و ما هذا كله إلّا لشدة بخلهم و عظيم شحهم([3]) .

فعروة بن الورد يمزج بين ظلمات الليل الشديدة ، و بين جلاء النهار و وضوحه و كأنه يهدف بذلك إلى إبراز معالم صورته الشعرية من جانبين ، أحدهما يتمثل في تلك الصورة الهجائية المتجسدة في البخل ذي القتامة السوداوية المخزية ، و الأخرى تتمثل في إبراز خيوط الكرم المضيئة تحت أشعة الشمس القابعة عالياً في ذرا السماء ، كما هو حال الكريم الجواد .

---

[1]- الفاخوري، حِنا، الموجز في ألأدب العربي وتاريخه، ج1.
[2]- ديوان عروة بن الورد، تحقيق: أسماء أبوبكر محمد، ص75.
[3]- الميداني : مجمع الأمثال، ج2، ص90.

ومن الشعراء الكرام من كان يربط بين إكرام الضيف والتنازل عن أغلى مايملك ،ويأتي متزعماً هذا الطريق حاتم الطائي مجسداً صورة رائعة من صور إكرامه لضيوفه ،حيث أمر غلامه بأن يوقد ناراً لجلب الأضياف مقابل عتقه وتحريره.

أوقد فإنَّ الليل ليل قرَّ *** والريحُ ياموقد ريح صرَّ

علَّ يرى نارك من يمرَّ*** إنْ جلبت ضيفاً فأنت حرَّ [1]

ومما ضرب على ذلك المنوال قول الخنساء في أخيها صخرٍ أيام جاهليتها:

لايمانع القوم إن سألوه خلعته *** ولا يجاوزه بالليل مرَّارُ[2]

فالخنساء موضحةً في قولها كرمه للضيف بل تعدى إلى التنازل عن ثوبه الذي يرتديه ممارسخ معاني السخاء الفياض حيال تلك العادة النبيلة.

ثالثاً: ليل الترقب

كما تحدث شعراء العصر الجاهلي عن سُراهم ليلاً وعن مظاهر الطبيعة المختلفة المحيطة بهم، وما يعرض لهم فيها من وحش كاسر وجن وغيلان، تحدثوا أيضاً عن تربُّصهم بأعدائهم، وترصُّدهم للفرصة الملائمة لمهاجمة ضحاياهم، فقد كانوا يتمركزون فوق القمم العالية التي يكشفون بها أوسع منطقة ممكنة، ويختبئون فيها بحيث يرون المارين من الناس دون أن يلحظهم أحد. وقد سميت تلك الأماكن المخصصة للتربص بالمراقب.

يقول يوسف خليف: (والمرقبة التي يتربص فوقها الشاعر دأئماً منيعة أبيَّة على سواه، وأكثر مايتحدثون عن تربصهم فوقها والليل مقبل يغشى الكون بدياجيه الكثيفة، ليكون هذا أمعن في التخفي) [3]

1- العقد الفريد، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه، ط1، ج1، ص242.
2- أبو العباس، ثعلب، شرح ديوان الخنساء، تحقيق: د فايز محمد، ص222.
3- خليف، يوسف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص182.

و يصور لنا الشنفرى صورة لمرقبته العالية التي يعجز الصياد البارع ذي الكلاب المدربة على الصيد من الوصول اليها ، أما هو فقادر على بلوغ قمتها بعد أن بدأت الشمس بالغروب ، و خيم ظلام الليل على الأرجاء ، و قد ظل فوقها متخفياً طوال ذلك الليل ، يقول :

و مرقبةٍ عنقاء يعمر دونها *** أخو الضِّرْوَة الرجل الحفي المتخفَّفُ

نعبْتُ إلى أدنى ذراها و قد دنا *** من الليل ملتف الحديقة أسدف

فبتُّ على حد الذراعين مجذياً *** كما ينطوي الأرقم المتعطف [1]

فعلى الرغم من علو مكانه ، و سواد الليل الشديد من حوله ، إلا أنَّه ما يزال منطوياً على نفسه طوال الليل كالأفعى ، من هنا نستنتشق ذلك الفلق المهين على قلبه و الصراع الوجداني المسيطر على نفسه في تلك الليلة ، فهو دائم الحذر و التربص .

وقال تأبط شراً مصوراً قنة الجبل التي ظل يصعد إليها ليلاً إلى أن دقت نواقيسه آذنةً بالرحيل و بدأت الشمس بالشروق .

و قلةٍ كنسانِ الرمح بارزةً *** ضَحيانة في شهور الصيف مِحرَاقِ

بادرتُ قنَّتها صحبي و ما كسِلوا *** حتى نميتُ اليها بعد إشراقِ

لا شيء في ريدها إلا نَعَامَتُها *** منها حزيمٌ و منها قائمٌ باقِ [2]

و يبدو أن الطبيعة وقفت إلى جانب الشاعر الجاهلي ، (فقد اتخذوا من الكهوف و المنحدرات و المستترات المشرفة على الأودية و الطرق ، مواضع رصد و إختفاء يراقبون المارة ، فإذا وجدوهم دخلوا موضعاً صعباً يمكن حصرهم به انقضوا عليهم ، فأخذوا منهم ما يكون عندهم من متاع هذه الدنيا ، ثم هربوا بما غنموا إلى مخابئِهم حيث لا يصل إليهم أحد).[3]

1- الشعراء الصعاليك (ديوان الشنفرى)،ص50.
2- ديوان الصعاليك(تأبط شراً)، ص146- 147.
3- علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج9، ص616.

و اقتحام جوف الليل للقيام بمهمة المراقبة من مقومات الرجولة عند العرب قديماً ، وقد سُمِّي صاحب هذه المهمة بـ "الربيئة" و كان من دواعي الفخر و الاعتزاز بالنفس ، أن يكون الشاعر منهم ربيئة قومه في غاراتهم ، يقول تأبط شراً مادحاً ابن عم له :

و يجعل عينيه ربيئة قلبه *** إلى سلَّةٍ من حدَّ أَخْلَقَ باتِكِ (1)

لذا نجد أنَّ التربص في المراقب أمر يحرص عليه كل شاعر شجاع ، فهي مهمة شاقة لا يقدر عليها إلا مغامر طموح ، قوي القلب ، جريء على خوض غمار الليل ، وبهذه الصفات تابع أبو خراش الهذلي حديثه عن الترقب ليلاً إذ لم يكن وحيداً في ذرا ذلك الجبل و تلك المراقبة ، بل كان برفقة صاحب قوي شديد ، رفض حياة العبودية و الذل بما فيها من نوم و دفء و راحة ، و آثر الحياة العاملة بما فيها من مشقة و أهوال ، و بما أصابه فيها من نحول و هزال ، فكل ما يرى من جسم نحيل لا لحم فيه فكفه بارزة اعصابها ، و ساقاه يابستان لا يوجد فيهما إلا العظم ، لذا استحق إعجاب كل شاعر مقدام .

يقول أبو خراش الهذلي – قبل إسلامه – مادحاً صحبه :

بصاحب لا تنال الدهر غِرَّتُهُ *** إذا افتلى الهدف القِنُّ المعازيبُ

بعثْتُهُ بسوادِ الليلِ يَرقُبُنِي *** إذا آثر النوم و الدِّفْءَ المناجيبُ

يظل في رأسِها كأنه زُلمٌ *** من القِداح به ضُرسٌ و تعقيبُ

سمحٌ من القوم عريانٌ أشاجعه *** خَفَّ النواشرُ منه و الظنابيبُ (2)

ومن هنا اتّضح للباحث أنّ استخدام الليل عند الشعراء الجاهليين لم يكن عبثاً منهم وإنما كانت له معاني ودلالات وموازنات ذات طابع نفسي تجعل الشاعر يعيش بكل أحاسيسه تلك الحالة التي تُفضي بذلك ، وهذا ما يود توضيحه بشكل أدقَّ في الفصل الثالث إن شاءالله.

1- ديوان الصعاليك (تأبط شراً) ص154.

2- ديوان الهزليين، ج2،ص160.

الفصل الثالث

الليل ودلالاته في الشعر الجاهلي

الليل ودلالاته في الشعر الجاهلي

لقد تعددت دلالات الليل وتلونت باختلاف نظرات الشعراء إاليه' تلك النظرات صورت العلاقة المتينة بين الشعراء والبيئة المحيطة بهم ' فتجلت بصور مختلفة متباينة تارةً ' ومتشابهة تارةً أخرى' من حيث كونها مصدراً لهموم الشعراء' وباعثاً لعواطفهم وخيالاتهم .

ويجدر بنا الغوص في جملة من الدلالات التي تكشف جوانب جديدة في تجربة شعراء الجاهلية التي تجعل الليل مجالاً فسيحاً للغوص في أبعاد ملامحه ' ودلالات صوره 'للتعبير عمَّا يجول في خواطر الشعراء ' ومايُخبئونه في نفوسهم.

مفهوم علم الدلالة في اللغة والاصطلاح:

أ/ في اللغة:

قال بن فارس: الدال واللام أصلان: أحدهما: إبانة الشيء بأمارةٍ تتعلمها، والآخر: اضطراب في الشيء. فالأول قولهم: دللت فلاناً على الطريق. والدليل: الأمارة في الشيء. وهو بيِّن الدَّلالة والدِّلالة ([1])

ب/ في الاصطلاح:

ذكر التهانوي أنَّ الدلالة في مصطلح أهل الميزان (المنطق) والأصول والعربية والمناظرة هي أن يكون الشيء بحالة يلزم من العلم بها العلم بشيء أخر.([2])

وحدها الأصفهاني بقوله: اعلم أن دلالة اللفظ عبارة عن كونه بحيث إذا سُمِعَ أو تُخُيِّلَ لاحظت النفس معناه([1])

1- (ابن فارس ص259)

2- (كشاف اصطلاحات الفنون ص787)

وقال بن النجار: كون الشيء يلزم من فهمه فهم شيء آخر فالشيء الأول: هو الدال. والشيء الثاني هو المدلول([2])

ومال أحد الباحثين إلى تعريف ابن حزم وغيره هو أن الدلالة: فعل الدليل([3])

وبعد أن عرّف الأصوليون الدلالة بأنها فعل الدليل، عرَّفوا الدليل بأنه المرشد إلى المطلوب، والموصل إلى المقصود، ولا فرق بين أن يحصل منه العلم أو غلبة الظن([4])

أما عن المُحدَثين، فقد عرَّف أحدهم الدلالة بأنه: العلم الذي يدرس المعنى، أو دراسة المعنى، أو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى، أو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادراً على حمل المعنى([5])

يتبيَّن من هذا العرض لمفهوم الدلالة عند من سبق من أصحاب المعاجم والأصوليين أنَّ النظر في الدلالة لم يكن حكراً على اللغويين، بل شاركهم في تصورها علماء ومفكرون آخرون، كأهل الحديث وغيرهم.

وعلى ذلك؛ فإنَّ علم الدلالة معْنِي بالمعنى في المقام الأول، ويعكف على دراسته وذلك ما يحتاجه هذا الفصل.

طول الليل ودلالته النفسية على الشاعر الجاهلي

نجد أنَّ ليل الحزين والمهموم من أشد الليالي طولاً على النفس' ولذلك ضاق بها الشاعر الجاهلي ذراعاً. فعرض له في شعره مستمداً صوره مما يشيع في حياته من سمات الخوف والرهبة والفزع مجسداً من خلال ذلك أحزانه وآلامه .

---

[1]- (بيان المختصر ص120)
[2]- (شرح الكوكب المنير ص125)
[3]- (التمهيد في أصول الفقه ص61)
[4]- (مرجع سابق ص61)
[5]- (علم الدلالة ص11)

وأمرؤ القيس من أدقّ شعراء الجاهلية تصويراً لأحزانه وهمومه إذ يُقرن ذلك بالليل أوثق قران . ففي لوحةٍ من لوحات معلقته تتابع الصور الليلية تتابعاً يتساوق الشكل مع المضمون تساوقاً فنيّاً يفضي إلى الإحساس بأن الليل كابوس ثقيل يجثم على الصدر حتى لايدع للمرء متنفساً.

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ مُرْخٍ سُدُولَهُ **** عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الهُمُومِ لِيَبْتَلِي
فَقُلْتُ لَـــهُ لَمَّا تَمَــطَّى بِصُلْبِهِ *** وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاء بِكَلْكَلِ
أَلاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلاَ انْجَلِى *** بِصُبْحٍ، وَمَا اْلإصْبَاحُ منكَ بِأَمْثَلِ[1]

وليـل الحـزين يقتـرن بالسـهد ومجانبـة الرقـاد فبمقـدار تلبـد الهمـوم فـي حنايـا الـنفس يتجسـد الليـل الـذي يزيـل فيـه النـوم عـين المـرق المسـهد . وهنـا يعـود أمـرؤ القـيس ليتـولى صورة الليل مقترناً بالسهد والأرق . يقول امرؤ القيس:

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالأَثْمِدِ *** ونَامَ الخَلِيُّ، وَلَمْ تَرْقُدِ
وَباتَ وَباتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ*** كَلَيْلَةِ ذِي العائِرِ، الأرْمَدِ [2]

يضـفي امـرؤ القـيس فـي هـذا البيـت لونـاً آخـر مـن ألـوان الليـل وطولـه حيـث نـام الأصـحاب لـيلهم كلـه وظـلَّ هـو كأنـه يعـاني مرضـاً فـي عينـه حرمـه النـوم، وهـذا جعـل ليلـه مـن أطـول الليالي.

واستعانته بالليل لتصوير همومه يتجاوز الحد الأدنى لهذه الاستعانة حتى يعمد إلى المجاز الذي يسميه البلاغيون بالمجاز العقلي حيث يسند فعل المبيت إلى الليل نفسه . وكأن الليل هو المؤرق المسهد. ثم يفجأنا بتشبيه سهاد الليل بليل آخر يعاني فيه العائر وجعاً في عينيه.

وإذا كان ليل أمرئ القيس مصوراً لنزاعات رجل مترف يعيش لذاته ' ولايجد في كل ممارساته اليومية مقنعاً يملأ عليه إحساسه بالفراغ ' فإن هناك رجلاً استبدت به الهواجس

1- (ديوان امرؤ القيس 18-19)
2- (ديوان امرؤ القيس ص53)

والهموم واقتضت مضجعه قضية تتعلق بكرامته ’ ذلك هو النابغة الذبياني. ضاقت الأرض على رحبها بالرجل بعد أن وجد نفسه طريداً مهدداً بالموت إثر وشاية من شانئه .

وهو الرجل الذي تأبى عليه أخلاقه العربية ايراد موارد التهمة فضلاً عن ارتكاب فاحشة . فهو يبذل جهداً غير اعتيادي لإظهار براءته’ فليله يجسد له هذه الهموم اللاهبة والأحزان المؤرقة . ذلك الليل هو ليل نفسي وليس ليلاً علمياً، لأن الشاعر نقض حدود العقل والمنطق’ ونما إليه حالة نفسية جعلته ليلاً يخالف سائر الليالي بتباطئه وعدم انحساره

يقول النابغة:

كليني لهمٍ ، يا أميمةَ ، ناصبِ *** و ليلٍ أقاسيهِ ، بطيءِ الكواكبِ

تطاولَ حتى قلتُ ليسَ بمنقضٍ *** و ليسَ الذي يرعى النجومَ بآيبِ

و صدرٍ أراحَ الليلُ عازبَ همهِ *** تضاعَفَ فيه الحزْنُ من كلّ جانبِ (1)يقترب النابغة في نزعته الفنية من أمرؤ القيس في تصور الليل ثقيلاً متباطئاً أو مشدوداً إلى موضع ثابت فأضفى عليه الواناً من الحزن حتى يئس من زواله.

والكثير من الشعراء قد أشار بعضهم إلى ليلة خاصة بعينها يسمونها ليل التمام (أطول ليلة من ليالي الشتاء) وهي عندهم رمز لأشد ما يعانيه الشاعر من ضيق وبرم يصلان حد الرهبة والفزع.

وليل التمام لاتختلف أجواؤه في جانب تصوير الجو الرهيب عن بقية الليالي إلّا بما تلقيه في أعماق النفس من استشعار الطول والتباطؤ.

يقول أمرؤ القيس في ذلك :

أعِنّي على التَّهْمامِ وَالذِّكَرَاتِ *** يَبِتْنَ على ذي الهَمّ مُعتَكِرَاتِ

1- (النابغة: سياسته- فنه- نفسيته، ص177)

بلَيْلِ التّمَـــامَ أوْ وُصِلْنَ بِمِثْلِهِ *** مُقَايَسَـــــةً أيّامُهَا نَكِــرَاتِ (1)

إنَّ أجواء البيتين توحي بالهموم والأذكار، ولكنّه عبر عن مشاعره هذه بربطها بليل التمام . ومن شدة مايعاني مع إعطاء الملمح الأعمق لهذا الشعور. فلم يكتف بليل واحد من الليالي بل ضاعفه بقوله : أو وصلن بمثله فيتعمق الإحساس بما يبث من شكوى وألم. كما جعل لضيقه الذي يعتلج في صدره منافذ الأمل في انقضاء الليل واسفار الصبح. ومن خلال ذلك نحس أن الرجل يمتلك طاقة نفسية داخلية يعالج بها معاناته . وقد حافظ على توازنه ولم يكن مستسلماً لليأس.

وعنترة يستثمر اللون في تصوير حزنه. فالسواد الذي التمسه لوناً لأحزانه هو من نفثات الأحاسيس الداخلية فلونه الأسود يشكل في أعماق نفسه عقدة والليل بسواده هو الآخر يشعره بمأساته الشخصية’ كما هو اللون الذي يتسق مع همومه وأحزانه. ومن أجل ذلك كان سواد الليل هو سبيله إلى تصوير مشاعره كما هو واضح في قوله:

ترى هل علمت اليوم مقتل مالك مصرعه في ذلة وهوان

فإن كان حقاً فالنجوم لفقده تغيب ويهوى بعده القمران

لقد كان يوماً أسود الليل عابساً يخاف بلاه طارق الحدثان(2)

ومن خلال جو غير جو الحزن والألم يعرض امرؤ القيس لليل التمام إذ يقول:

كأنّ المُدَامَ وَصَوبَ الغَمَامِ **** وَرِيحَ الخُزَامَى وَنَشْرَ القُطُرْ

يُعَلُّ بِـــهِ بَرْدُ أنْيَابِـــــهَا **** إذَا طَرّبَ الطّائِرُ المُسْتَحِرْ

فَبِتُّ أُكَابِدُ لَيْــــلَ التِّـــمَامِ **** وَالقَلْبُ من خَشْيَةٍ مُقْشَعِرْ (3)

1- (ديوان امرؤ القيس، 78-79)

2- (شعراء النصرانية قبل الاسلام ص876)

3- (ديوان امرؤ القيس، 157- 158)

وإنه على موعد. فكان الجو مشعر بالأنس إلا أنه مشوب بالخوف . ممَّ يخاف امرؤ القيس ؟ لا ندري. وليس المهم أن ندري. إنما الذي يهمنا أن نحس أمرأ القيس خائفاً . وقلبه من شدة

الخوف اعترضته هزَّة وقشعريرة. كل ذلك يرسم جو الرهبة .وليس أوقع في النفس من خلال صورة ليل التمام الطويل بذاته والطويل من خلال معاناة الشاعر المنتظر.

والشعراء الاخرون حين تستبد بهم الهموم والأحزان يغمسون ريشة الفن في سواد الليل يلونون به مشاعرهم، ولذلك كثرت هذة النبرة عند أكثر من شاعر وحيث يقول المهلل :

باتَ لَيلي بِالأَنعَمَينِ طَويلا***أَرقُبُ النَجمَ ساهِراً لَن يَزولا([1])

فإن الشطر الاول من بيته ليس إلا حديثاً مباشراً عن طول الليل . حيث تعوزنا الصورة التي تجسد الطول والإحساس به إحساساً ينفذ إلى اعماقنا فأن ذلك نلتمسه في الشطر الثاني في حركةٍ الترقب للفجر الذي يعني النفس بانبلاجه .ولكن الأفق يضيق حين يرى النجم ثابتاً لايريم ، ساهراً لن يزول . فهنا تضيق النفس بهذا الليل الراكد الجاثم .

والحارث بن عباد يضرب على الوتر في الإحساس بطول الليل من خلال تلبد الهموم في آفاق نفسه وذلك من خلال قوله:

قَرِّبا مَربَطَ النَعامَةِ مِنّي ... لِلسُرى وَالغُدُوِّ وَالآصالِ([2])

إنّ هموم الشاعر هنا تبلغ الذروة حتى تصور أنه لم تمر به ليلة طويلة كهذة الليلة يترقب زوالها؛ لأن وراءه امرأ عظيماً مهماً يشغل باله ويملأ عليه اقطار نفسه . ومعاناة المثقب العبدي تبدو لنا واضحةً ، وإستعانته بالليل في تصوير هذة المعاناة أكثر وضوحاً ، حيث جعله' هو الذي يكدس همومه في صدر الشاعر .

يقول المثقب العبدي

1- (شعراء النصرانية قبل الاسلام ص178)
2- (شعراء النصرانية قبل الاسلام ص172)

ظللت أرد العين عن عبراتها ** اذا نزفت كانت سراعاً جمومها

كأني اقاسي من سوابق عبرةٍ ** ومن ليلةٍ قد ضاق صدري همومها([1])

فليلةُ الشاعرِ تقف منه موقف المعاداة حيثُ أترعت صدره بهذه الهموم الثقال فإذا كان في شواهد الشعراء الآخرين إلماح إلى معاداة الليل للشاعر فأن المثقب قد جسد لنا عداء الليل له بوضوح .

وعدي بن زيد العبادي ينحو في موقفه من الليل منحى الشعراء الآخرين في ذكر الليل الطويل حيثيقول:

طالَ ذا اللَيـلُ عَلَينا وَاِعتَكَر *** وَكَأَنّي ناذِرُ الصُبحِ سَمَر

مِن نَجِيِّ الهَمِّ عَندي ثاوِياً *** فَوقَ ما أُعلِنُ مِنهُ وَأُسِر

لم أغَمِّضْ طُولَهُ حتَّى انقَضَى ** أتَمنَّى لو أرَى الصُبحَ جَشَر ([2])

إن الهم جعله يشعر بطول الليل واعتكاره، فهو لم يستطع أن يغمض عينه فتمنى أن يشرق الصبح ولكن لم يجد ماتمناه، وتعبيره عن هذا الشعور جاء على صورة معادلة بين الهم والليل .

فمن هنا يتضح لنا أنّ طول الليل بجميع صوره وأحداثه إنما شكل مصدر هموم وأحزان ورهبة للشعراء الذين عانوا منه كثيراً حتى جعلهم يعبرون بهذا الإحساس العميق إزاء هذا الليل الطويل.

السفر ليلاً ودلالتهُ على الشجاعةِ:

السُّرى "سير الليل كله"، والسّرى : لايكون إلا سير الليل ".

تقول بنت الشاطئ حين ما تعرضت لتفسير قوله تعالى

1- (ديوان شعر المثقب العبدي ص 236)

2- (ديوان عدي بن زيد العابدي ص 59)

2- الفجر، الأية4.

السرى في العربية : السير عامة الليل ، وفي دلالته اللغوية الأولى معنى الخفاء ، وربما كان أصل استعماله الحسي في السُّرى ، وهو عرق الشجرة دبَّ تحت الارض ، لحظ فيه الامتداد مع الخفاء فأستعمل في السُّرى لما في السير مدى بالليل من خفاء ، واختص السرى بالليل تمييزاً له عن عامة السير ، والأصل ان الليل يسرى فيه. ([1])

ويعد سرى الليل عند العرب قديماً من المفاخر التي تبرز مايتمتع به الشخص من مقومات البطولة والجرأة.

ونجد أن الشاعر الجاهلي ارتبط بأرضه وتعلقه الوجداني بها جعلاه بثقل وطأة الرحيل على نفسه، وهو _ مع ذلك _ مضطر إلى شدِّ الرحال بين حين وآخر، مد فعاً اليه بجملة من عوامل هي مقتضيات حياته.

ولقد كان الليل حاوياً للكثير من الحكايات المعبرة والصادقة لحياة فئة من الذين يعانون من شدة الحياة الصحراوية القاسية.

يقول الأعشي الكبير:

لَا يَسْمَعُ الْمَرْءُ فِيهَا مَا *** يُؤَنِّسُهُ بِاللَّيْلِ إِلَّا نَئِيمَ الْبُومِ ([2])

فالأعشى يصف الصحراء ليلاً بالصمت المريب حيث يُسمع فيها إلا صوت البوم مما جعل بعضهم ينسبون الخوف والشر جلّه للصحراء ووحشتها .

وكذلك شبهوا وحشتها بعزيف الجن قال الأعشي الكبير في ذلك :

وَبَلدَةٍ مِثلِ ظهر التُّرْسِ مُوحِشَةٍ **** للجِنّ بِاللّيْلِ فِي حَافَاتِهَا زَجَلُ

لاَ يَتَنمَّى لَهَا بِالقَيْظِ يَرْكَبُهَا**** إلاَّ الَّذِينَ لَهُمْ فِيمَا أَتَوْا مَهَلُ([3])

1- (التفسير البياني للقرآن الكريم، ص132- 133)
2- (الحتى، حنا نصر، شرح ديوان الأعشى الكبير، 251)
3- (الحتى، حنا نصر، شرح ديوان الأعشى الكبير، 201)

فالشاعر يرسخ لنا ماكان فاشياً عن الصحراء ومجاهلها ونسبة مايحدث فيها ليلاً للجن مما جعل السير بها ليلاً لا يكون إلا للمضطر وهذا مايعزز جانب الرهبة والخوف منها.

ومن هنا نتبين أن انتقاء الشاعر للرحلة والسرى في ثنايا الليل يعد بمثابة الغوص في أعماق النفس الإنسانية والكشف عن رغبة دفينة لديه في الانتصار على الزمن ، وتغيير الواقع القاسي الذي عايشه ومر به.

وغالباً ما يعمد الشاعر الجاهلي إلى تصوير الليل بصفته ظرف السرى الزمني والمحور الأساسي في هذة التجربة مضافاً إلى عناصر أخرى ، ليحيطه بمزيد من مقومات المخاطر التى تحف بمغامرته . ومن هنا كانت الصحراء بكل ماتنطوي عليه من أسباب الهلاك والفناء من أهم العناصر التي جاءت مقترنةُ بالليل في رحلة السرى ، والمدى الواقعي لهذة التجربة.

يقول عنترة في ذلك متحدياً مجاهل الصحراء في ذلك الليل الدامس ومُظهراً لصور الشجاعة والبطولات :

وَكيْفَ أخْشى مـــــنَ الأَيَّامِ نائِبةً *** وَالدَّهْرُ أهْونُ مَا عِنْدي نَوائبُهُ.

كم ليلةٍ سرتُ في البيداءِ منفرداً*** واللَّيْلُ لِلْغَرْبِ قدْ مالت كوَاكبُه[1]

أن السير في البيداء منفرداً أمر لايخلو من خطورة ،وقد يقوم بهذة الرحلة كل من إرتبط مصيره بمثل هذة البيئة. ولكن السير في الليل منفرداً لا يتأتى الا ممن أُوتي نصيباً وافراً من الشجاعة وعلى ذلك يقول عنترة :

أطْوي فيافي الفلاَ واللَّيلُ معْتكِرُ *** وأقطعُ البيدَ والرَّمضاءُ تَستعرُ.

ولا أرى مؤنِساً غيرَ الحُسَام وإنْ *** قلَّ الأَعادِي غدَاة َ الرَّوع أَوْ كَثُروا (2)

الشاعر عنترة لا يخشى شيئاً فمصائب الدهر أهون عنده بكثير، فلم يكن سيره في الصحراء حديثاً بل تعود على ذلك مراراً وتكراراً.

1- (ديوان عنترة ص 8)
2- (ديوان عنترة ص 40)

ولا يتغير من نظرتنا الى إستخدام الليل عنصراً من عناصر التحدي أن يستعير عنترة من النهار صورة الى جوار صورة الليل هي الآخرى تعبر عن التحدي .

وهذا ابو النشناش النهشلي ، يقتحم الليل وقد تضافرت من حوله أسباب الهلاك ، في ارض قفرٌ لا ماءٌ فيها ولا علمُ، يقول :

وداويةٌ بَهْمَاءُ يَخشى بها الردى ** سَرَت بِأبي النشناشِ فيها رَكَائِبهْ

لِيدركَ ثأراً او لِيدركَ مغْنماً ** جزيلاً وهذا الدهر جمٌّ عجائِبهُ([1])

فهو يجتاز فلاةٌ مقفرةٌ مجهولةِ المسالك ، طمست معالمها فلا يهتدي فيها الى شئ مما يزيد من أسباب الموت، ويجعل من مسراهُ مغامرةٌ محفوفةٌ بالمخاطر .

ويقول الأعشى أيضاً:

بشُجَاعِ الجِنانَ يَحتَفِرُ الظَّلْماء ** ماضٍ على البِلادِ خَشُوفِ

مُستَقِلٌّ بِالرَّدْفِ ما يَجعَلُ الجرَّةَ ** بعْدَ الإدْلاجِ غَير الصَّرِيفِ([2])

وصف الأعشى جمله بأنه شجاع يتحدى الظلام فيخترق حُجُب الليل الكثيفة، متقدماً لايخاف ولا يتردد. وأن هذا الجمل القوى لايبالي أن يركب وراء صاحبه ويسير الليل كله خالي الجوف من الطعام، فلا يجترَّ ولا يسمع صرير أنياب قط.

إن ما سبق يدل على أنّ الرحيل يمثل تحدياً وقوة، ولكن تارةً قد يكون باعثاً على الحزن ولألم كما في قول أعشى قيس:

فَدَعْ ذا ولكن رُبَّ أرضٍ مَتِيهَة ** قطعتُ بحرَ جُوجٍ إذا الليلُ أظْلَما

يُنَاجِيهِ كالفَحْلِ فيها تَجَاسَرَ** إذا الرَّكْبُ النَّاجِي استَقَى وتَعَمَّمَا

1- (الملوحي، عبد المعين: اشعار اللصوص واخبارهم، ج1، ص 50-51)

2- (ديوان الأعشى الكبير ص27)

تَرى عَيْنها صَفْواءَ في جَنبِ مَوقِها ** تُراقبُ كَفِّي والقَطِيعُ المُحْرَما

كأنّي ورَحْلِي والعِتَّانِ ونَمْرُقِي ** على ظَهَرِ طاوٍ اسْفَعَ الخَدِّ أخْثَمَا ([1])

هذا رحيل يمثل التحدي، وهو رحيل لابد منه، ولابد إذاء ذلك أن يمضي في هذا التيه الذي يعرِّض نفسه فيه إلى مخاطر، والليل البهيم يحف بهذه الرحلة الخطرة. من خلال ذلك نحس أنَّ هذا الرحيل كان من أجل غاية قد لايفصح الشاعر عن مدى خطورتها في حياته، ولكن جو التحدي الماثل خلال الأبيات هو الذي يُشعرنا بخطورة ما يقدم عليه.

ولكن امرؤ القيس يسمعنا نبرة غير هذه النبرة التي عرفناها عند أعشى قيس حيث يقول:

ألا أنعِمْ صَبَاحاً أيّهَا الرَّبْعُ وَانْطِقِ **** وَحدِّثْ حديثَ الركبِ إن شئتَ وَاصْدقِ

وَحــــــدِّثْ بأنْ زَالَتْ بلَيْـلٍ حُمولُهـــمْ **** كنَخلٍ مـن الأعــــــــرَاض غيرِ مُنَبِّقِ ([2])

فالشاعر يهيم في ديار الراحلين ويرجو الربع أن يتحدَّث. فهو ليس قادراً على أن يُفصح عن مشاعره لما أصابه من ذهول وما إعتراه من حزن وألم حين كان فراق محبوبته ليلاً.

أما عنترة فإنه يقرب من حديث امرؤ القيس في قوله:

إن كُنتِ أَزْمعتِ الفِراقَ، فإنّما *** زُمّتْ رِكابُكُمُ بِلَيْلٍ مُظلـــــــمِ

ما راعَني، إلاّ حَمُولَةُ أهلِــها *** وَسْطَ الدِّيارِ تَسَفُّ حَبَّالخِمخِم([3])

فهو يقف حزيناً إزاء رحلة الحبيبة، والحزن من شأنه أن يلون الحياة بالرهبة وغيرها. كما يسرد رحيلها في ذاك الليل المظلم مما عمق من حزنه وألمه.

إذن لابد أن يكون الليل مصوراً لهذا الإحساس المتلون بالرهبة والكآبة. وربما كان الرحيل في وضح النهار. ولكن إحساس الشاعر الحزين هو الذي يضفي عليه غلالة الليل القائمة الكئيبة.

1- (شعراء النصرانية قبل الإسلام ص 20)
2- (ديوان امرؤ القيس)
3- (ديوان عنترة – تحقيق مولوي 188)

ولعل الإنسان في ساعة الرحيل يمر بحالة زهول ووجوم، لا قِبل له بالإفصاح عما يجيش في جوانحه فيلتزم الصمت الرهيب، وما أن يفرغ إلى نفسه بعد سويعات هدأة تتفجر المشاعر الحزينة، وتتلاحق في خضمها ذكريات الحبيبة وترتفع هذه المشاعر زروتها حين يجن الليل ويهدأ كل شيء من حوله.

ورحيل المتلمس لايكون إلا ليلاً، ولذلك فإنّ الليل يأخذ بعداً عميق الغور في نفس المتلمس، ذلك أنه طريد منفي يعاني الغربة والحنين، لايقر له قرار ولا يهنأ له المكوث في موضع

يقول:

إنَّ العِراقَ وَأَهلَهُ كانُوا الهَوى *** فَإِذا نَأى بي وُدُّهُم فَليَبعُدِ

فَلتَترُكَنَّهُمُ بِـــلَيلٍ ناقَتــــــي *** تَذَرُ السِماكَ وَتَهتَدي بِالفَرقَدِ([1])

إذاً نلتمس من خلال ذلك كله أنَّ الرحيل والسُرى ليلاً يمثل تحدياً وقوةً دالين على الشجاعة والإقدام حيناً، وحيناً أخر يدلان على الحزن والرهبة ولألم، وكلاهما يؤلف لوحة الرهبة والتهيب والتوجس.

الليل وتلاقي العاشقين وستر الظلام:

إنّ حب المرأة عاطفة إنسانية خالدة بكل ماتحمله من دلالات الحياة والخِصب والبقاء، ولقد غامر الشاعر الجاهلي تحت جنح الظلام، وتجشم الأهوال كغيره من العشاق ليصل إلى تلك الحبيبة تحت أستار الليل، غير مبالٍ بما يصله من أخطار، ولقد ميزت العرب قديماً بين ليل الراقد وليل المحب، فقالوا: ما أقصر ليل الراقد، و ليل المحب بلا آخر.

فهو دائم الأرق والسهر مع حالات الحبيبة الهاجرة أو الراحلة، حيث تنساب عليه الذكريات في هدأة الليل، فتبعثر سكونه وأحزان، خاصة إذا ما فوجئ فراقها له دونما سابق إنذار، يقول الشنفرى مصوراً حالته، وقد ارتحلت حبيبته ولم تسنح له الفرصة بتوديعها:

1- (شعر النصرانية قبل الإسلام ج1 ص 341)

ألا أمُّ عَمْروٍ أجْمَعَتْ فاسْتَقَلَّتِ *** وَمَا وَدَّعَتْ جِيرَانَها إذْ تَوَلَّتِ

وَقَدْ سَبَقَتْنَا أمُّ عَمْرٍو بأمْرِهَا *** وَكانَتْ بأعْنَاقِ المَطِيِّ أَظَلَّتِ

بِعَيْنَيَّ ما أمْسَتْ فَبَاتَتْ فَأصْبَحَتْ *** فَقَضَّتْ أمُورا فاسْتَقَلَّتْ فَوَلَّتِ

فَوَا كَبِدا على أُمَيْمَةَ بَعْدَما *** طَمِعْتُ، فَهَبْهَا نِعْمَةَ العَيْشِ زَلَّتِ([1])

فمعاناة الشنفرى التي تبدو في صدمته، وذهوله من رحيل محبوبته المفاجئ يوحي بتعلقه الشديد بها، وحرصه البالغ عليها، وما استنجاده بتلك العهود، والمواثيق الّا تخليصاً لروحه، وقلبه الجريح من ذلك العذاب الذي ألمَّ به، وليعيد التعاون والتوازن إلى نفسه المضطربة، من خلال تعهده بعدم النسيان ولزوم الذكرى، فها هي ماثلة أمام عينيه يراها حينما يظلها الليل بأستاره، وعندما تبيتُ في جنباته إلى الصبح، مؤكداً على مبدأ الديمومة، والاستمرارية في حبها بعدما فُجع بفقدانها.

ويقول النابغة الذبياني:

أقولُ والنجمُ قد مالتْ أواخرهُ *** إلى المغيبِ تثبت نظرةً حارِ

ألَمحَةٌ من سَنا بَرْقٍ رأى بصَري *** أم وجهُ نعمٍ بدا لي أم سنا نارِ

بل وجهُ نعمٍ بدا والليلُ معتكرٌ *** فلاحَ مِن بينِ أثوابٍ وأستْارِ(2)

فالنابغة أمسى حائراً بعد مغيب شمس ذلك اليوم وظهور نجومه في ليل معتكر لبعده عن مجبوبته حتى شُغل خياله بهافهذا كله قد جعل الحزن والأسى يسيطران على مخيلته.

أما تأبط شراً فما زال منشغلاً في مغامراته العاطفية. فيقول:

بِحَليلَةِ البَجليِّ بِت مِن لَيلِها*** بَينَ الإزارِ وَكَشحِها ثُمَّ اِلصَقِ

1- (الصعاليك ص 117)
2- (الدسوقي، عمر، النابغة الذبياني، 1966، ص 237.)

بِأَنيسَةٍ طُوِيَت عَلى مَطوِها *** طَيَّ الحِمالَةِ أَو كَطَيِّ المَنطِقِ (1)

فهو يتغزل في امرأة سباها من بني بجيلة، ويصف تلك الليلة التي قضاها معها لاهياً بها لهو المحب المتيَّم مما يعزز جو اللقاء الليلي المنتظر.

ومن المحبين المتيمين الذين كابدوا الظلام كي يصلوا الى محبوباتهم امرؤ القيس. ويقول في ذلك :

وبَيضَةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها، *** تَمَتَّعْتُ مِن لَهوٍ بها، غَيرَ مُعجَلِ

تَجاوَزْتُ أَحْرَاساً إلَيها ومَعشَراً *** عليَّ حِرَاصاً لو يُسِرُّونَ مَقتَلي

فَجِئْتُ، وقد نَضَّتْ لنَوْمٍ ثِيابَهَا *** لَدَ السِّترِ إلاّ لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ

فَقالَتْ: يَمينَ اللَّهِ مــا لَكَ حِيْلَةٌ *** وما إنْ أَرَى عَنكَ الغَوَايةَ تَنْجَلي

خَرَجْتُ بها أَمشي تَجُرُّ وَرَاءَنا *** على أثَرَينا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ ([2])

فأمرؤ القيس قد سلك طريقاً شاقاً مغامراً بحياته ليصل إلى محبوبته التي وصفها ببيضة بخدر في جنح الظلام متجاوزاً كل من كان حولها من أحراسٍ وأهلٍ، فخلا بها وهي قد تهيأت للنوم .

ويقول عنترة بن شداد في لقائه محبوبته :

لَهَوتُ بِها وَاللَيلُ أَرخى سُدولَهُ *** إِلى أَن بَدا ضَوءُ الصَباحِ المُبَلَّجُ

أُراعي نُجــــومَاللَيلِوَهيَ *** كَــأَنَّها قَواريرُ فيـــــها زِئبَقِ([3])

لقد كان لقاؤه بها في ذلك الليل المظلم الذي صور فيه نجومه بالقوارير المضيئة، لاهياً بمحبوبته إلى ضوء الصباح دليل سعادة وصفاء بينهما.

[1]- (الصعاليك ص 122)
[2]- (امرؤ القيس ص15)
[3]- ديوان عنترة ص29)

ويقول الأعشى الكبير عن سهره لمحبوبته:

نامَ الخليُّ، وبتُّ اللّيلَ مرتفقا **** أرْعَى النّجومَ عَمِيداً مُثْبَتاً أرِقَا

أسهو لهمّي ودوائي، فهيَ تسهرني *** وكانَ حبٌّ ووجدٌ دامَ فاتّفقا

لاشيءَ ينفعني منْ دونِ رؤيتها *** هلْ يشتفي وامقٌ مالمْ يصبْ رهقا([1]).نستشف من قول الشاعر أنَّ ما ألم به من سهرٍ وألمٍ ومراقبة النجوم، بسبب فراقه لمحبوبته، قد أطال ليله و أوجع قلبه فتمنى وجودها معه وإحساسها بهذا الألم الذي اعتراه وكان دليلاً قويّاً لما يلاقيه العاشقون من معاناة وعذاب.

ويوضح أمرؤ القيس لقاءه لمحبوبته ليلاً و أنه قد جاء يسترق الخطى،كأنه حباب الماء حتى دخل على صاحبتهِ، وهدَّأ من روعها، واقسم لها فاجراً أنَّ الجميع ناموا، ثم قال:

نَظَــرْتُ إلَيْهَا وَالنّجُومُ كَــــأنّهَا ... مَصَــــــــابِيحُ رُهْبَانٍ تُشَبُّ لِقُفّالِ

سَمَوْتُ إلَيها بَعدَما نَامَ أهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ المَاءِ حَالاً على حَالِ

فَقَالَتْ: سَبَاكَ اللهُ، إنّكَ فَاضِحِي، ... ألَسْتَ تَرى السُّمّارَ وَالنّاسَ أحوالي

فَقُلْتُ: يَمِينُ اللهِ أبْرَحُ قَاعِداً، ... وَلَوْ قطّعوا رأسِــــــــي لدَيكِ وأوْصَــــــــال([2])

يصور لنا الشاعر لقاءه بمحبوبته وسط أهلها متحدياً بذلك كل من حولها، مما جعلها تلح عليه بعدم المخاطرة بهذا اللقاء المخيف، فأكد لها حتى لو اضطر الأمر إلى قطع رأسه فهو لن يتراجع، فدخل عليها وسط الظلام وسامرها وجالسها دون فزع.

ويقول الأعشى في انتظاره لنوم الرقيب ليدخل على محبوبته:

فَظَلِلتُ أَرعاها وَظَلَّ يَحوطُها*** حَتّى دَنَوتُ إِذا الظَلامُ دَنا لَها

1- (الأعشى الكبير ص365)

2- (ديوان امرؤ القيس ص141)

فَرَمَيتُ غَفلَةَ عَينِهِ عَن شاتِه *** فَأَصَبتُ حَبَّةَ قَلبِها وَطِحالَها

حَفِظَ النَهارَ وَباتَ عَنها غافِلاً *** فَخَلَت لِصاحِبِ لَذَّةٍ وَخَلا لَها ([1])

فالأعشى يراقب من يحرسها حتى إذا غفل عنها دخل على محبوبته في جنح الظلام وكان الذي أراد وكان للقائه معنى.

أما عروة بن الورد فقد شبه ريق محبوبته قبيل نومها بعصير العنب في حلاوته حيث يقول:

فَقَالوا مَا تَشَاءُ فَقلتُ أَلَهُو ** إلى الإصْباحِ آثر ذِي أثير

بِآنِسَةِ الحَديثِ رِضَابُ فيها ** بُعيدَ النومِ كالعِنبِ العَصِير (2)

فهو يستمتع طوال الليل مع محبوبته ويستعيد في الوقت ذاته الذكرى التي سلبتها منه الأيام وحملت معها المتعة من خلال وصف ريق المحبوبة وقد لفه الليل بأستاره، وحفظه بظلامه، لعله بذلك يسعى إلى تعميق الإحساس بهذه القيمة الجمالية، والمتعة الحسية التي جعلت من ثغر المرأة المحبوبة مورداً عذباً يلجأ اليه الشاعر العاشق ليلاً.

ويقول الأعشى الكبير في اللهو بمحبوبته:

وبيضاء المعاصم إلفِ لهوٍ ** خلوتُ بشكرها ليلاً تماماً

فدخلت إذ نام الرقيب ** فبتُ دون ثيابها

حتى إذا ما أستر سَلَت ** من شدةٍ للعابها

قسَّمتها قسمين ** كُلُّ موجَّهٍ يُرمى لها

فثنيتُ جِيدَ غريرةٍ ** ولمستُ بطن حقابها([3])

---

[1]- (ديوان الأعشى ص27)

[2]- (ديوان عروة بن الورد، والسموأل بن عادياء، ص32)

[3]- (ديوان الأعسى الكبير، شرح : الدكتور محمد حسين، ص197)

الطيف والخيال:

من الذين طرقوا أبواب الخيال إزاء المحبوبة، طرفة بن العبد، مصوراً طيف محبوبته يزوره ليلاً مجتازاً كل المخاطر ليصل اليه في ذلك الليل.

يقول:

أرّق العينَ خيال لمْ يقر *** طافَ والرّكْبُ بصَحْراءِ يُسُرْ

جازَتِ البِيدَ إلَى أرحُلِنا *** آخِرَ اللّيْـــــلِ، بيَعْفُورٍ خَدِرْ

ثمّ زارَتني وصَحْبي هُجَّعٌ *** في خليـطٍ بينَ بُردٍ ونمرْ([1])

فالشاعر يرى خيالاً لمحبوبته أتعب عينه مجتازاً الصحراء المهلكة ليلتقي به وسط مجموعة من أصحابه النيام مؤكداً بذلك تعلق الشعراء المتيمين بمحبوباتهم حتى وإن كان هذا خيالاً فهم عازمون على التلاقي في ذلك الليل .

ويقول المرقش الأكبر في طيف محبوبته:

سَــــرَى ليلاً خَيَالٌمن سُلَيْمى *** فَأرَّقَني وأصــــــــحابي هُجُودُ

فَبِتُّ أُدِيرُ أَمْرِي كـــــــلَّ حالٍ *** وأرْقُـــبُ أهْــلَـهَا وهُمُ بعيدُ([2])

فالمرقش يعاني الأرق والسهر من خيال سلمى الذي ظل ملازماً له طوال الليل مما جعله يراقب أهلها وهم بعيدُ.

ويقول عبيد بن الأبرص:

---

[1]- (طرفة بن العبد، ص39)

[2]- (المفضليات ص 223)

طاف الخيال علينا ليلة الوادي *** من آل أسماء لم يلمم بميعاد

أنّى اهتديت لركبٍ طال ليلهم *** في سبسبٍ بين دكداك وأعقاد

يطوفون الفلا في كل هاجرةٍ *** مثل الفنيق إذا ما حثه الحادي([1])

وهاهو عبيد بن الأبرص يطرق ما طرقه صاحباه طرفة والمرقش من زيارة الطيف ليلاً عند وادي سبسب مجتازاً الصحراء ومابها من مجاهل ليصل إلى مراده في استار ذلك الليل.

أما تأبط شراً يقول :

يَا عيدُ مَا لَكَ مِنْ شَوْقٍوَإيراقِ *** وَمَرِّ طَيْفٍ عَلَى الأَهْوَالِ طَرَّاقِ

يسرِي على الأينِ والحيَّات مُحتفياً *** نفسي فداؤكَ من سارٍ على ساقِ([2])

يصور الشاعر طيف محبوبته الذي اعتاد على مواصلته حتى في اشد الأهوال وأعظم الخطوب، وقد سرى اليه ليلاً، منتعلاً الحصى حتى أضناه التعب، وأصابه الإعياء، لكنه أبى إلا أن يصل إلى مبتغاه.

و من خاف عيون الأعادي يتخذ الليل سلماً على حد تعبير بعضهم.

فَقَالَتْ كَذَاكَ الْعَاشِقُونوَمَنْ يَخَفْ *** عُيُونَ الأَعَادِي يَجْعَلِ اللَّيْلَ سُلَّمَا([3])

فالشاعر يؤكد لنا في هذا البيت أن الليل هو الزمن الذي يتخذه العاشقون الوعاء الحامي للتلاقي مع عاشقيهم والستار الواقي من كيد الوشاة والأعادي.

وهكذا لم يكن الليل وعاءً زمنياً فقط، بل له معاني ودلالات عميقة، جسدها الشعراء من خلال استشعارهم لتلك اللذة القابعة في زوايا اللقاء الليلي بمحبوباتهم حقيقة وخيالاً، والمعاناة التي تتسم

---

[1]- (ديوان عبيد بن الأبرص ص 62)

[2]- (ديوان تأبط شراً)

[3]- (مصارع العشاق 7/2)

بالطمأنينة والقلق والخوف حيناً، ومن انقضاء نعيم اللذة التي يجدها مع محبوبته حيناً آخر، وسرعان ما تتبدد مع انتهاء ساعات الليل وفناء لحظاته.

الخاتمة

الحمد لله عزَّ وجل في علاه، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى من اقتفى أثره، وسار على هداه، وبعد، فإن اقتحام ليل الشاعر الجاهلي قد وصل إلى نهاية مطافه، وعلى الرغم من قلة علامات الطريق، وتفاقم ألوان الظلمة، إلا إنه قد كشف الغطاء عن مفاهيم مختلفة، ودلالات متنوعة، حول ظاهرة من أبرز الظواهر الطبيعية في عالم الشعراء الجاهليين، وتجلى لنا من خلاله ماكان لليل من حضور فاعل في أفكارهم، وأشعارهم، حيث تبين في ثنايا هذه الدراسة أنّ الحديث عن الليل في الشعر الجاهلي لم يشكل غرضاً شعرياً تقليدياً، بل كان صورة تمثلها وعي الشاعر الجاهلي، ثم وظفها في التعبير عن مواقفه الشعورية، وجسد فهيا الآمه، وعَكَسَ عليها انفعالاته النفسية، وتطلعاته المستقبلية.

وتبين من خلال هذه الدراسة أنّ دلالة الليل تنطوي في أشعار الجاهليين على معنى الإدراك الحسي للأشياء الخاص بالشاعر ورؤاه في هذا الكون الشعري، وقد تم استنباط الدلالات، والمفاهيم المتعلقة بالليل في الشعر الجاهلي عن طريق استقراء أشعار الجاهليين ، باستخدام المحاور العامة في نظرية الحقول الدلالية، والتي تعد من النظريات الهامة فيما يخص دراسة المعنى، وهي التي تناسب الدراسات الإنسانية المتعددة وبخاصة في الميدان الأدبي.

النتائج:

1- إنَّ مفهوم الليل عند الشاعر الجاهلي يمثل وعاء يحوي بداخله مجموعة من المعاني:كالخوف والحزن والسعادة والشجاعة والكرم .....الخ

2- فقد كانت النجوم والكواكب بشير الخصب أو نذير الجفاف عند العرب، وكذلك كانت الدليل الذي يهتدون به في ظلمات الليل، وكذا رمز الشرف وعلو المكانة .

3- لقد كانت صور الليالي المقمرة من العناصر التي زادت الليل رونقاً وجمالاً مماجعل الشعراء يتفاعلون معها بجانب ربطها بالليل.

4- وكذلك كان الليل ميدان التسابق لفرض مبادئ السيادة والافتخار عن طريق الكرم والإيثار على سراة الليل وهداة القفار.

5- إنَّ التربص بالأعداء وترصدهم للفرصة المناسبة للنَّيل منهم كان إحدى صور الليل التي تجعل الأعداء يتأهبون لما يلاقيهم من المجهول.

6- إنّ الليل كان باعثاً للألام والهموم والأحزان من خلال الفراغ الذي يعيشه الشاعر من فراق و انتظار وغيره.

7- وكذلك كان الليل ساحة لإبراز صور الشجاعة والإقدام وتحدي لما يعتري المسافر من صحاري وقفار.

8- ويعتبر الليل مبعثاً للسعادة وصفاء القلب من خلال تلاقي العاشقين وما يتخيله الشاعر من طيف وأحلام.

التوصيات:

1- على الباحثين أن يعطوا هذه الظاهرة (الليل) قدراً كافياً من الأهمية لما تحمله من معانٍ ودلالات لغوية ثرَّة.

2- يجب على الدارسين الوقوف على العصر الجاهلي، والعصور الأخرى بما يحويه من كنوز في العلم والمعرفة.

3- من الممكن أن تضع الكليات منهجاً لدراسة كل ظاهرة من ظواهر الشعر الجاهلي على حدى مثل (الليل و الخوف و الكرم ..الخ) حتى يتذوق الدارس المعاني والدلالات القيمة التي تركها الشعراء الجاهليون في ذاك العصر.

المصادر والمراجع:

1- عبد المعين: الملوحي، موسوعة أشعار اللصوص وأخبارهم، المجلد الثالث، ج5.

2- أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي: جمهرة أشعار العرب: تحقيق: على محمد البحادي: الناشر : نهضة مصر، ج1.

3- (تأبط شرا)ديوان الصعاليك ، شرح: يوسف شكري فرحات، دار الجيل ، بيروت.

4- ديوان رؤبة بن الحجاج ، تصحيح: وليم بن الورد، (1903).

5- اسحاق ابراهيم بن اسماعيل:ابن الاجدابى،ابو الازمنةوالانواء،تحقيق: عزة حسن،دمشق (1946م).

6- أبو الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي:ابن سيده، دار الكتب بيروت(د.ت) المجلد الثاني ، السفر التاسع.

7- أبو محمد عبدالله بن مسلم :ابن قتيبة : المعارف ، تحقيق : ثروت عكاشة، دار المعارف (1981).

8- ابو محمد عبالله بن مسلم:ابن قتيبة : الانواء فى موسم العرب،وزارة الثقافة والاعلام ،بغداد (1988م).

9- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: ابن منظور: نثار الأزهار في الليل والنهار، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت (1981م).

10- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: ابن منظور، لسان العرب ، دارصاد بيروت (د. ت) المجلد الحادي عشر.

11- ثعلب، أبو العباس، شرح ديوان الخنساء، تحقيق: د فايز محمد.

12- محمد بن أحمد: الأزهري : تهذيب اللغة، ج15.

13- محمد بن أحمد: الأزهري، تهذيب اللغة : تحقيق: ابراهيم الإيباري، دار الكاتب العربي، الظاهرة (1967م)، ج15.

14- أمرؤ القيس: ديوان أمرؤ القيس، تحقيق : محمد أبو الفضل.

15- بطرس :البستاني ، محيط المحيط.

16- بطرس :البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان ، بيروت (1977م).

17- أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي: جمهرة أشعار العرب: تحقيق: على محمد البحادي: الناشر : نهضة مصر، ج1.

18- علي: الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، دار المعارف القاهرة.

19- يوسف: خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي.

20- الخنساء وليلى ألأخيلية : ديوان الباكيتين، شرح يوسف عيد، ط1، 1992م.

21- الحسين بن أحمد: الزوزني، شرح المعلقات السبع ، تحقيق : عبد الجبار نبيه الجندلي.

22- خالد بن ربيع بن محمد : الشافعي، الليل عند شعراء الجزيرة العربية في العصر الحديث ط(2004).

23- (ديوان الشنفرى) ، الشعراء الصعاليك ، تقديم : طلال حرب، الدار العالمية ، بيروت(د.ت).

24- (ديوان عمرو بن براق) ، الشعراء الصعاليك ، تقديم : طلال حرب، الدار العالمية ، بيروت(د.ت).

25- شوقي ضيف : في النقد الادبي ، دار المعارف (1981).
26- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي.
27- عبد البديع لطفي: عبقرية العربية في روئية الإنسان والحيوان والسماء والكواكب، مكتبة لبنان بيروت (1997).
28- شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، ط1، ج1.
29- علي: الغيضاوي، الإحساس بالزمن في الشعر العربي من الأصول حتى نهاية القرن الثاني للهجرة، ج2.
30- حِنا، الفاخوري، الموجز في ألأدب العربي وتاريخه، ج1.
31- أبو علي بن المستنير : قطرب ، كتاب الأزمنة وتلبية الجاهلية،تحقيق: حنّا جميل حداد، مكتبة المنا، الأردن (1985م).
32- أبو علي بن المستنير: قطرب: الأضداد، تحقيق : حنا حداد، الرياض(1984م).
33- ابوعلى الحسن بن رشيق: القيروانى، العمدة فى محاسن الشعر و ادابة و نقدة، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد،دار الجبل ،بيروت (1972م)،ج 2.
34- أبو الطيب: اللغوي، الأضداد، تحقيق: عزة حسن، دمشق(1963م).
35- علي بن الحسين: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد(1958)، ج2.
36- عبدالمعين: الملوحي ، موسوعة اشعار اللصوص واخبارهم ، دار الحضارة الجديدة ، بيروت (1993م) ، المجلد الثاني ، ج3.
37- اليوسف يوسف : مقالات في الشعر الجاهلي ، دار الحقائق، بيروت (1985).
38- ديوان شعر المثقب العبدي، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي.
39- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح: د. حسين نصار، (1957) ط1.
40- ديوان عدي بن زيد العبادي، ت: محمد جبار المعيبد.
41- ديوان عمرو بن ربيعة، تحقيق: فائز محمد.
42- ديوان عنترة بن شداد – تحقبق محمد سعيد مولوي

43- حنى ناصر : الحتى، شرح ديوان الأعشى الكبير، ت: كامل سليمان،(2003)
44- لويس شيخو اليسوعي، شعراء النصرانية قبل الاسلام، دار المشرق العربي (1999) .
45- جعفر بن أحمد بن الحسين السراج: مصارع العشاق، تحقيق: محمد حسن محمد حسن، دار صادر .
46- ايليا حاوي: النابغة الذبياني: سياسته – وفنه – ونفسيته، ت، محمد الطاهر بن عاشور (1970) .
47- اليوسف يوسف : مقالات في الشعر الجاهلي ، دار الحقائق، بيروت (1985).
48- عائشة عبدالرحمن: بنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة
49- ديوان طرفة بن العبد: شرح، محمد مهدي ناصر (2002)، ط3.
50- أحمد بن فارس: مقاييس اللغة، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر (1979).
51- إسماعيل بن حماد: الجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطا، دار العلم للملايين، بيروت (1990)، ط4.
52- شمس الدين محمود بن عبد الرحمن: الأصفهاني، بيان المختصر، ت: علي جمعة (2004) ، ط1.
53- تقي الدين محمد بن أحمد: ابن النجار، ت: د. محمد الزحيلي و نزيه حماد، (1998)، ط2.
54- محفوظ بن أحمد بن الحسن: الكلوذاني، ت: د. مفيد محمد أبو عمشة، (1985)، ط1.
55- دلدار غفور حمد أمين: البحث الدلالي في المعجمات الفقهية المتخصصة، دار دجلة، الأردن (2007).
56- أحمد مختار عمر: علم الدلالة، عالم الكتب (د- ت).
57- محمد السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر (د- ت).

58- عبد الغفار حامد هلال: علم الدلالة اللغوية، دار الكتاب الحديث، القاهرة (2013).

59- ديوان طرفة بن العبد: شرح يوسف الأعلم الشنتمري، ت: درية الخطيب.